نافذة على الغرب 4



توماس كارليل

محمد المثل الأعلى

تعريب: محمد السباعى

دراسة وتقديم وتعليق

د. محمود النجيرى

مكتبة النافذة

محمد صلى الله عليه وسلم

المثل الأعلى

فيلسوف الغرب الأكبر

توماس كارليل

(١٧٩٥ -١٨٧١م)

تعريب

محمد السباعي

تقديم وتحرير ودراسة

دكتور محمود النجيري

مكتبة النافذة

"لقد بحثت في التاريخ عن مثل أعلى لهذا الإنسان؛

فوجدته في النبي محمد"

الفيلسوف الألماني "جوته"

(من كتاب "شمس الحضارة تسطع على الغرب": زيجريد هونكه، ص٤٦٥)

محمد صلى الله عليه وسلم المثل الأعلى

توماس كارليل

الطبعة الأولى / 2008

رقم الإيداع 8832/ 2008

الطباعة

دار طيبة للطباعة - الجيزة

الناشر

مكتبة النافذة

1 ش المستشار حسن دياب (برج مكة 3) المنشية

(ميدان الساعة) _ إمتداد الثلاثيني

الطالبية _ فيصل _ الجيزة _ مصر

هاتف: 37241803 _ 39848568

محمول: 0123595973 فاكس: 37827787

Email:alnafezah@hotmail.com

تصدير

بسم الله، والحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله.

عنوان هذا الكتاب بالإنجليزية: **(Heroes and Hero-worship)**. وترجمتها: "البطولة وعبادة الأبطال"[1].

وضعه الكاتب الأشهر، والفيلسوف الأكبر، توماس كارليل، وعرَّبه محمد السباعي. ويحتوي على خمس محاضرات، ألقاها الكاتب على بني قومه، هي:

- **المحاضرة الأولى:** البطل في صورة إله.
- **المحاضرة الثانية:** البطل في صورة رسول: محمد- الإسلام.
- **المحاضرة الثالثة:** البطل في صورة شاعر: دانتي- شكسبير.

---

[1] هذا العنوان يثير حساسية لدى كل مسلم؛ لأنه يصدم عقيدته في صفائها وطهارتها؛ فالعبودية لا تكون إلا لله وحده. كما يقول الله سبحانه في كتابه المجيد: {مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إلا أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَآؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ} (يوسف:٤٠). ولا يجوز في ذلك تأويل، ولا مجاز.

ومفهوم عبادة البطل عند كارليل هو "الإفراط في إجلاله، إفراطا لا حَدَّ له". ولا نوافقه على هذا؛ فالعقيدة الصحيحة: أنه لا يجوز الإفراط في بشر قط، ولا رفعه فوق بشريته. لذا حذر رسول الله من الإفراط فيه؛ حتى لا تقع أمته في الشرك كما وقعت النصارى بغلوها في المسيح؛ فقال: "لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم؛ فإنما أنا عبد؛ فقولوا عبد الله ورسوله" (أخرجه البخاري، كتاب الأنبياء، باب: {واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها} (مريم:١٦)، حديث رقم:٣٢٦١). ويقول الله ﷺ: {مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُواْ عِبَاداً لِّي مِن دُونِ اللّهِ وَلَـكِن كُونُواْ رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ} (آل عمران:٧٩).

- المحاضرة الرابعة: البطل في صورة قسيس: لوثر- البروتستينية، نوكس البيوريتانية.

- المحاضرة الخامسة: البطل في صورة كاتب: جونسون- روسو- بارنز.

- المحاضرة السادسة: البطل في صورة ملك: كرومويل- نابليون.

ونقتصر في طبعتنا هذه على المحاضرة الثانية، التي ألقاها الكاتب بتاريخ (٨ مايو، سنة ١٨٤٠م).

وقد آثرنا إصدار هذه المحاضرة مفردة في كتيب يحمل اسم "محمد ﷺ المثل الأعلى".

وأهمية ما كتبه توماس كارليل منذ هذا الوقت البعيد، تكمن في تجرده وموضوعيته الواضحة في مؤلفه، وغيرته على الحقيقة التاريخية، ورفضه للأحكام السابقة والمتحيزة، وفي دراسته لسيرة الرسول ﷺ، وللفترة المرافقة لنزول الوحي، وبدء الدعوة الإسلامية. ورده على تهجمات بعض الغربيين على الإسلام ونبيه، وهم الذين طالما ألصقوا التهم الباطلة برسول الله ﷺ، وبالدين الحنيف.

ويؤمن فيلسوف الغرب كارلايل بأهمية الدين في حياة البشر، ودوره الكبير في تشكيل تاريخهم. فما التاريخ إلا تاريخ الأفكار التي صاغت حياة الناس. وإن تاريخ البشر هو تاريخ عظماء الرجال الذين صاغوه، وتاريخ الأفكار التي بثوها في الناس. يقول في ذلك:

"في اعتقادي أن التاريخ العام، تاريخ ما أحدث الإنسان في هذا العالم، إنما هو تاريخ مَن ظهر في الدنيا مِن العظماء؛ فهم الأئمة؛ وهم المكيِّفون للأمور؛ وهم الأسوة والقدوة؛ وهم المبدعون لكل ما وُفق إليه أهل الدنيا. وكل ما بلغه العالم، وكل ما تراه قائمًا في هذا الوجود كاملا متقنًا، فاعلم أنه نتيجة أفكار أولئك العظماء، الذين اصطفاهم الله، وأرسلهم إلى الناس

ليؤدي كلٌّ ما ناطته به القدرة الإلهية من الخير. فروح تاريخ العالم إنما هو تاريخ أولئك الفحول".

صفات الرجل العظيم كما حددها كارلايل:

١. إخلاص الرجل الكبير، رجل صادق النية، جادٌ مخلصٌ. إن الإخلاص- الإخلاص الحر، العميق الكبير- هو أول خواص الرجل العظيم.

٢. الصدق وحب الخير، إنه من المحال أن يكون كاذبًا؛ فإني أرى الصدق أساسه؛ وأساس كل ما به من فضل ومحمدة.

٣. إن الرجل الكبير لا يفخر بإخلاصه أبدًا، ولا يتحدث به مطلقا.

٤. أصالة الرجل العظيم، وصفاء جوهره، وكريم عنصره، فقد علّمه الله العلم والحكمة؛ فوجب علينا أن نُصغي إليه.

٥. يرى الوجود حقيقة كبرى، تروعه وتهوله حقيقة لا يستطيع أن يهرب من جلالها الباهر. وتظل هذه الحقيقة كل لحظة بين جنبيه، ونُصْبَ عينيه.

٦. يرى باطن كل شيء. لا يحجب عنه ذلك باطلُ الاصطلاحات، وكاذب الاعتبارات والعادات والمعتقدات، وسخيف الأوهام والآراء. وإن الحقيقة لتسطع لعينه سطوع الشمس في رابعة النهار.

لماذا انبهر كارلايل بشخصية محمد ﷺ ؟

يذكرها كارلايل صريحة لبني قومه:

"الحقيقة الكبرى، وهي أنه رجلٌ صادق، ونبيٌ مرسل".

ويقول أيضًا:

"كلا، ما محمد بالكاذب، ولا المُلَفِّق. وإنما هو قطعة من الحياة، قد تَفَطَّر عنها قلبُ الطبيعة، فإذا هي شهاب قد أضاء العالم أجمع. ذلك أمر الله، وذلك فضل الله، يؤتيه مَن يشاء، والله ذو الفضل العظيم"[1].

ويمكن أن نحدد أسباب إعجاب كارليل بشخصية رسول الله ﷺ فيما يلي:

١. أمية محمد، وأنه لم يعلمه بشر، وإنما نشأ وعاش وحده في أحشاء الصحراء، فلم يعرف من العالم، ولا من علومه إلا ما تيسر له أن يُبصره بنفسه، أو يصل إلى سمعه، في ظلمات صحراء العرب. ولم يضره، ولم يُزْرِ به أنه لم يعرف علوم العالم، لا قديمها، ولا حديثها؛ لأنه كان بنفسه غنيًا عن كل ذلك. ولم يقتبس محمد من نور أي إنسان آخر، ولم يغترف من مناهل غيره.

٢. صدق محمد وأمانته التي اتصف بها منذ حداثته. ووفاؤه النادر، وإخلاصه لعشرائه. واتصافه بالمروءة والشرف.

٣. إيثاره للصمت، وبعده عن التكلف. فإذا نطق أتى بالحكمة البالغة، وفصل الخطاب. بعيدًا عن التلاعب بالأقوال، والقضايا المنطقية، والعبث بالحقائق.

٤. كان رجلاً راسخَ المبدأ، صارمَ العزم، بعيدَ الهم، كريمًا برًا، رءوفا تقيًا، فاضلاً حرًا. رجلاً شديدَ الجدِّ مخلصًا، عظيم النفس. وما كان بعابث قط، ولا شابَ شيئًا من قوله شائبة لعب ولهو.

---

[1] يقول الشاعر الفرنسي الشهير "لامارتين" في كتابه "السفر إلى الشرق": «أترون أن محمدا كان صاحب خداع وتدليس، وصاحب باطل وكذب؟! كلا؛ بعدما وعينا تاريخه، ودرسنا حياته».

٥. كان سهل الجانب، ليِّن الجانب، جَمُّ البِشْر والطلاقة، حميد العشرة، حُلو الإيناس، بل ربما مازحَ أصحابه، وداعبَ أزواجه.

٦. كان محمد جميلَ الوجه، وضيئ الطلعة، حسن القامة، زاهي اللـون. له عينان سوداوان تتلألآن. تضيئ وجهَه ابتسامةٌ مشرقة، من فؤاد صادق.

٧. كان ذكي اللـب، شـهم الفـؤاد، ممتلئًـا نـارًا ونـورًا. رجـلا عظيمًـا بفطرته، لم تثقفه مدرسة، ولا هذبَّه معلم. وهو غني عن ذلك.

٨. كان حاد الطبع، ناري المزاج، ولكنه كان عادلا، صادق النية، مملوءًا رحمة وخيرًا، وحنانًا وبرًّا.

٩. تواضعه، فلم يكن متكبرًا، ولم يكن ذليلا ضرعًا. بـل هـو قـائم في ثوبه المرقع، كما أوجده الله، وكما أراد. يخاطب بقولـه الحـر المـبين قياصـرة الروم، وأكاسرة الفرس، ويرشدهم إلى ما يجب عليهم لهذه الحيـاة، وللحيـاة الآخرة.

١٠. كان زاهدًا متقشفا في مسكنه، ومأكلـه، ومشـربه، وملبسـه، وسـائر أموره وأحواله. وكان طعامه عادة الخبـز والمـاء، وربمـا تتابعـت الشـهور ولم توقد بداره نار. وكان يصلح نعله، ويرفو ثوبه بيده.

ولكل هذه الصفات وغيرها، رمى كارلايل أعداء محمد، والطاعنين عليـه بأنهم "الأفاكون، الجهلة، الكفـار، أصـحاب الأضـاليل والأباطيـل". وأعلـن لبني قومه دخيلة نفسه، فقال:

"وإني لأحب محمدًا؛ لبراءة طبعه من الرياء والتصنع. ولقـد كـان ابـن القفار هذا رجلا مستقل الرأي، لا يُعَوِّل إلا على نفسه، ولا يدَّعي ما ليس فيه".

دفاع كارليل عن محمد ﷺ، وعن الإسلام:

في بحث كارلايل عن البطولة في بني البشر، نظر إلى رسول الله نظرة إنصاف فقال لبني قومه:

"أرى في محمد دلائل شاعرية كبيرة، وآيات على أشرف المحامد، وأكرم الخصال. وأتبين فيه عقلا راجحًا عظيمًا، وعينًا بصيرة، وفؤادًا صادقًا، ورجلا قويًا عبقريًا. لو شاء لكان شاعرًا فحلا، أو فارسًا بطلا، أو ملكًا جليلا، أو أي صنف من أصناف البطل".

نظر كارلايل نظرة رجل يبحث عن الحقيقة- في حياة محمد، وطالع أقواله وأعماله، فوجد أن محمدًا الرحيم أخو الإنسانية- أخونا جميعًا الرءوف الشفيق، وابن أمِّنا الأولى، وأبينا الأول.

رد كارلايل مزاعم من رمَوْا محمدًا ﷺ بالكذب، ورأوا في الإسلام خدعة وتلفيق، وأخذته غيرة كبيرة على الحقيقة التي يؤمن بها، فرفع بها صوته في بني قومه قائلا:

"لقد أصبح من أكبر العار، على أي فردٍ متمدين من أبناء هذا العصر، أن يُصغِي إلى ما يُظن من أن دين الإسلام كذب، وأن محمدًا خَدَّاعٌ مُزَوِر. وآن لنا أن نحارب ما يُشاع من مثل هذه الأقوال السخيفة المخجلة؛ فإن الرسالة التي أداها ذلك الرسول ما زالت السراج المنير مدة اثني عشر قرنًا لنحو مائتي مليون من الناس أمثالنا[1]، خلقهم الله الذي خلقنا. أفكان أحدكم يظن: أن هذه الرسالة التي عاش بها، ومات عليها هذه الملايين الفائتة الحصر والإحصار. أكذوبة وخُدْعة؟! أما أنا، فلا أستطيع أن أرى هذا الرأي أبدًا. ولو أن الكذب والغش يروجان عند خلق الله هذا الرواج،

[1] العدد الآن يزيد على ذلك بمليار نسمة.

ويصادفان منهم مثل ذلك التصديق والقبول، فما الناس إلا بُلْهٌ ومجانين، وما الحياة إلا سَخَفٌ وعبَثٌ وأضلولة، كان الأولى بها أن لا تُخلق[1].

ودافع كارلايل عن الإسلام، مقرراً أنه الحق الذي قضى على الباطل قال:

"لقد جاء الإسلام على تلك الملل الكاذبة، والنحل الباطلة، فابتلعها. وحق له أن يبتلعها؛ لأنه حقيقة خارجة من قلب الطبيعة. وما كاد يظهر الإسلام حتى احترقت فيه وثنيات العرب، وجدليات النصرانية، وكل ما لم يكن بحق؛ فإنها حطب ميت، أكلته نار الإسلام، فذهبَ. والنار لمْ تذهب".

وبين كارلايل أيضا: أن الإسلام دين كل فاضل شريف. وقال بأنه إذا كان الإسلام هو أن نُسلم الأمر لله، ونُذعن له، ونسكن إليه، ونتوكل عليه. فنحن جميعًا على الإسلام، مستشهدًا بقول شاعر الألمان العظيم "جوته":

إذا كان ذلك هو الإسلام فكلنا إذن مسلمون

وبين أيضا أن الدعوة إلى عمل الخير- التي أتى بها الإسلام- هي قانون الكون العادل، ودعوة جميع الرسالات، والمنهج الأقوم، وسبيل السعادة.

وأوضح كارلايل أن جوهر الإسلام هو أن نتوكل على الله قبل كل شيء، وأن نفطم النفس عن الشهوات، وننهي القلب عن الهوى، وأن لا نجمح في عنان المنى، وأن نصبر على الأحزان والآلام، ونرضى من الله كل ما قسم.

وهذا التسليم لإرادة الله وقدره ليس ضعفا، ولكنه قوة الرضا بما لا

---

[1] ويقول (لامارتين) في كتابه "السفر إلى الشرق": «إن محمدًا فوق البشر، ودون الإله، فهو رسول بحكم العقل.. وإن اللغز الذي حله محمد في دعوته، فكشف فيها عن القيم الروحية، ثم قدمها لأمته دينا سماويا سرعان ما اعتنقته؛ هو أعلى ما رسمه الخالق لبني البشر».

حول لنا به، ولا قدرة عليه، وصبر على بلاء الله، وثبات في امتحان الإيمان بأن الله هو الفعَّال لما يريد، وما نحن بين يديه إلا عبيد.

ويُعجب كارلايل من فضائل الإسلام: تضحية النفس في سبيل الله. ويعد هذا أشرف ما نزل من السماء على بني الأرض.

وفي الإسلام خلة، يراها من أشرف الخلال وأجلها، وهي التسوية بين الناس. وهذا يدل عنده على أصدق النظر، وأصوب الرأي، فنفس المؤمن راجحة بجميع دول الأرض، والناس في الإسلام سواء.

ومن ادَّعَوْا- من الغربيين- أن الإسلام ما هو إلا بدعة نصرانية، ردَّ عليهم كارليل قائلا:

"نحن سَمَّينا الإسلام "ضربًا من النصرانية". ولو نظرنا إلى ما كان من سرعته إلى القلوب، وشدة امتزاجه بالنفوس، واختلاطه بالدماء في العروق؛ لأيقنا أنه كان خيرًا من تلك النصرانية، التي كانت إذ ذاك بالشام واليونان وسائر تلك الأقطار والبلدان. تلك النصرانية، التي كانت تُصَدِّعُ الرأس بضوضائها الكاذبة، وتتركُ القلبَ ببطلانها قفرًا ميتًا!".

ويُجَلي كارلايل دعوة الإسلام إلى تحطيم الأصنام، ونبذه لكل وثنية، وإعلائه لدعوة التوحيد الخالص، مؤكدًا عظمة هذه الدعوة قال:

"وإن دينًا آمن به أولئك العرب الوثنيون، وأمسكوه بقلوبهم النارية، لَجديرٌ أن يكون حقًا، وجدير أن يُصَدَّقَ به. وإن ما أودع هذا الدينُ من القواعد، هو الشيء الوحيد، الذي للإنسان أن يؤمن به".

ماذا يعنون بأخطاء محمد ﷺ؟

هل لمحمد ﷺ أخطاء وهفوات؟

ادعى بعض أهل الغرب أن لمحمد ﷺ أخطاء وأغلاط.

ولا شك أن محمدًا ﷺ لا يُخطئ في تبليغ الرسالة؛ لأن الله ﷻ عصمه من الخطأ في البلاغ، كما عصم كلَّ رسول بعثه من لدنه. يقول الله تعالى: {يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ} (المائدة:٦٧).

ولا يدع الله الرسول يُبدِّل في الوحي، كما يقول تعالى: {وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذاً لاَّتَّخَذُوكَ خَلِيلاً وَلَوْلاَ أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً إِذاً لأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لاَ تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيراً} (الإسراء:٧٣-٧٥).

ولا يترك الله الرسول يزيد أو يُنقص في الدين، يقول سبحانه: {وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ} (الحاقة:٤٤-٤٧).

ويبطل الله كيد الشيطان في محاولته خداع الرسول لإضلاله، كما يقول الله ﷻ: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} (الحج:٥٢).

وهذا كله فيما يتكلم به الرسول من الدين مبلغًا عن الله ﷻ. فكل ما ورد به من تشريع، هو من عند الله. ولا يُلام عليه الرسول ﷺ إذا كان لا يرضى به بعضُ الغربيين أو الشرقيين.

وأما ما يتكلم به الرسول من عند نفسه في عوائد الناس، وشئون الدنيا، فقد يُخطئ فيه الرسول؛ وذلك لأنه لم يُبعث بعلوم الطب، ولا الكيمياء، ولا الهندسة، ولا الفلك، ولا الطبيعة ... إلخ من شئون العالم. فإذا قال فيها قولا بصفته البشرية، فكان خطأ، فإنه لا يُطعن في صفته رسولا من عند

الله تعالى. وقد أشار النبي ﷺ على أصحابه بعدم تأبير النخل، وترْك تلقيحه الذي اعتادوا.

والحديث في ذلك رواه رافع بن خديج ﷺ قال: "قدم نبي الله ﷺ المدينة، وهم يُأبرون النخل. يقولون: يُلقحون النخل. فقال: ما تصنعون؟ قالوا: كنا نصنعه. قال: لعلكم لو لم تفعلوا كان خيرًا فتركوه، فنفضت، أو فنقصت. قال: فذكروا ذلك له، فقال: **إنما أنا بشر. إذا أمرتكم بشيء من دينكم، فخذوا به. وإذا أمرتكم بشيء من رأي، فإنما أن بشر**"[1].

وأما ما يدَّعيه الغرب من أخطاء لرسول الله محمد ﷺ، فكلام مردود عليه. وذلك كزواجه ﷺ من عدد كبير من النساء، فهذا من العوائد الدنيوية، التي لا يصح أن نحكم عليها بمقاييس عصرنا وعوائده. فقد كان لنبي الله إبراهيم عليه السلام ثلاث زوجات، ونبي الله يعقوب، كان له أربع زوجات، وتزوج موسى عليه السلام من أربع نساء، كل ذلك حسبما ورد في التوراة. وقد ورد في سفر صموئيل (٢٣ :٢٦) ذكر تسع زوجات لسيدنا داود عليه السلام. هذا غير جواريه. وورد أنه كان لسليمان عليه السلام سبعمائة زوجة، وثلاثمائة أمة.

وفي إنجيل متى أن المسيح ضرب هذا المثال:

"١ حينئذ يشبه ملكوت السموات عشر عذارى، أخذن مصابيحهن، وخرجن للقاء العريس. ٢ وكان خمس منهنّ حكيمات، وخمس جاهلات. ٣ أما الجاهلات، فأخذن مصابيحهن، ولم يأخذن معهن زيتا. ٤ وأما الحكيمات، فأخذن زيتا في آنيتهن، مع مصابيحهن. ٥ وفيما أبطأ العريس، نعسن جميعهن ونمن. ٦ ففي نصف الليل، صار صراخ: هو ذا العريس

[1] (أخرجه مسلم، كتاب الفضائل، باب وجوب امتثال ما قاله شرعًا دون ما ذكره ﷺ من معايش الدنيا على سبيل الرأي، حديث: ٢٣٦٢).

مقبل، فاخرجن للقائه. ٧ فقامت جميع أولئك العذارى، وأصلحن مصابيحهن. ٨ فقالت الجاهلات للحكيمات: أعطيننا من زيتكن؛ فإن مصابيحنا تنطفئ. ٩ فأجابت الحكيمات قائلات: لعله لا يكفي لنا، ولكنّ بل اذهبن إلى الباعة، وابتعن لكنّ. ١٠ وفيما هنَّ ذاهبات ليبتعن، جاء العريس، والمستعدات دخلن معه إلى العرس، وأغلق الباب"[١].

فهذا العريس، له عشر زوجات، والمسيح لم ينكر عليه ذلك.

ماذا عن أخطاء داود عليه السلام؟

يزعم اليهود والنصارى أن نبي الله داود فعل أمرًا قبيحًا، لا يجوز من أعتى المجرمين. فاشتهى زوجة قائده "أوريا الحثي"، وزنى معها، وحبلت من هذا الزنا. ثم أضاف على خطيئته خطيةً أخرى، بمحاولته تغطية الأولى وإخفائها، وهي قتل زوجها[٢].

ولا شك أن الله تعالى عصم نبيه داود عليه السلام من مثل هذا. وما هو إلا كذب وافتراء. كما افتروا على غيره من الأنبياء والرسل، فصوروا لوطا شرب الخمر حتى سكر، ثم زنا بابنتيه حتى أحبلهما. وصوروا يهوذا يزني

---

[١] متى، الإصحاح الخامس والعشرون.

[٢] القصة بتمامها في سفر صموئيل الثاني، الإصحاح الحادي عشر. ومنها: "٢ وكان في وقت المساء أن داود قام عن سريره، وتمشى على سطح بيت الملك، فرأى من على السطح امرأة تستحمّ. وكانت المرأة جميلة المنظر جدًا. ٣ فأرسل داود، وسأل عن المرأة، فقال واحد: أليست هذه بثشبع بنت إليعام، امرأة أوريَّا الحثّي؟ ٤ فأرسل داود رسلا وأخذها، فدخلت إليه، فاضطجع معها، وهي مطهّرة من طمثها. ثم رجعت إلى بيتها. ٥ وحبلت المرأة، فأرسلت، وأخبرت داود، وقالت: إني حبلى .... ١٤ وفي الصباح، كتب داود مكتوبًا إلى يوآب، وأرسله بيد أوريا.

١٥ وكتب في المكتوب يقول: اجعلوا أوريا في وجه الحرب الشديدة، وارجعوا من ورائه، فيضرب، ويموت".

بـكنته.

وقصة داود ﷺ في القرآن ليس فيها ذلك. يقول الله ﷻ: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ. قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيراً مِّنْ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعاً وَأَنَابَ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ﴾ (ص:٢١-٢٥).

وفي الإسرائيليات: النعجة رمز المرأة التي أحبها داود فانتزعها، وكان له من النساء تسع وتسعون.

وهذا التفسير غير صحيح، ولا يوجد في شيء من كتب التفسير المعتمدة، التي تقف عند الصحيح، وتمحص الأخبار.

وأما تأويل الآية الشريفة فهو- والله أعلم: أن داود ﷺ لما أغلق على نفسه الباب، ولزم الخلوة والعبادة، اضطر الخصمان إلى أن يتسوروا عليه المحراب، ففزع منهم، وفي ساعة الفزع هذه، سمع من أحدهما، وحكم له ولم يسمع من الآخر: وهذا هو الابتلاء، وهذه هي الفتنة التي استغفر منها داود. وقد مدحه الله سبحانه بقوله: ﴿اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالإِشْرَاقِ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ﴾ (ص:١٧-٢٠).

قال القاضي عياض- رحمه الله: "وأما قصة داود ﷺ فلا يجب أن

يلتفت إلى ما سطره فيه الإخباريون من أهل الكتاب، الذين بدَّلوا، وغيَّروا. ونقله بعضُ المفسرين. ولم ينصّ الله على شيء من ذلك، ولا ورد في حديث صحيح"[1].

وكان على بن أبي طالب ﷺ يقول: "مَن حدَّثكم بحديث داود على ما يرويه القصاص، جلدته مائة وستين. وهو حد الفرية على الأنبياء".

حديث كارليل عن الوحي والقرآن:

يؤمن كارليل بأن نور الله، قد سطع في روح محمد، فأنار ظلماتها. وهذا النور هو ضياءٌ باهر، كشف تلك الظلمات التي كانت تؤذن بالخسران والهلاك. وهو وحي الله، يهب الفهم والإدراك. وهو العلم، والنفاذ إلى صميم الأمور، وجواهر الأشياء- وذاك سِرٌّ من أغمض الأسرار.

وكون الله قد أنعم علي محمد بكشف تلك الأسرار له، ونجَّاه من الهلاك والظلمة. وأمره بإظهارها للعالم أجمع. فإن هذا كله هو معنى كلمة "محمد رسول الله". وهذا هو الصدق الجلي، والحق المبين.

هذا عن الوحي عمومًا، أما القرآن، فيقرر كارليل أنه قد: "رآه العرب من المعجزات، وأعطَوْهُ من التبجيل ما لم يعطه أتقى النصارى لإنجيلهم. وما بَرِحَ في كل زمان ومكان: قاعدة التشريع والعمل، والقانون المتبع في شؤون الحياة ومسائلها، والوحي المُنَزَّل من السماء، هدىً للناس، وسراجًا منيرًا، يضيء لهم سبل العيش، ويهديهم صراطا مستقيمًا، ومصدر أحكام القضاة، والدرس الواجب على كل مسلم حفظه، والاستنارة به في غياهب الحياة".

---

[1] الشفا بأخبار المصطفى: القاضي عياض ١٣٦/٢.

ويلمس كارلايل في القرآن: "الإخلاص المحض الصراح"، ويظهر له "أنه فضيلة القرآن التي حببته إلى العربي المتوحش، وهي أول فضائل الكتاب".

ويعجب بما جاء في القرآن من الصلوات، والتحميد والتمجيد، ولكنه شديد الإعجاب بما يجد فيه من النظر الصائب، الذي ينفذ إلى أسرار الأمور. فهذا أعظم ما يلذه ويعجبه منه.

ويرفض كارليل كل طعن في القرآن، ويدفع قول القائل بأنه "الأخاديع والتزاويق، التي لفقها محمد". بل نراه يقول في عبارات صادقة:

"إني لأمْقُتُ كلَّ من يرمي محمدًا بمثل هذه الأكاذيب. وما كان لذي نظر صادق قط، أن يرى في القرآن مثل ذلك الرأي الباطل".

ومع ذلك نرى كارلايل يبعد عن التوفيق حين نلمح من كلامه أنه يرى القرآن كلام محمد[1]. ونقول في وضوح: إن هذا الظن خطأ؛ لأن القرآن كلام الله ﷻ، نزل به جبريل (أمين الوحي) على محمد ﷺ، مبلغا عن الله تعالى. يقول سبحانه: **﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾** (الشعراء:١٩٢-١٩٥).

وعقيدة جميع المسلمين: أن القرآن كلام الله ﷻ، باللفظ وبالمعنى. وهذا هو الكتاب. يقول الله سبحانه: **﴿هُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ في قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاء الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاء تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ**

---

[1] لا يؤمن النصارى بالوحي المباشر من الله سبحانه إلى البشر. ولكن الوحي عندهم هو مجرد إلهام من الله. وقد عرفه "ويستر" قال: "هو تأثير روح الله الفائق للطبيعة على الفكر البشرى. به تأهل الأنبياء والرسل والكتبة المقدسون لأن يقدموا الحق الإلهي بدون أي مزيج من الخطأ". وفي الرسائل ما يوضح ذلك، قال: "لأنه لم تأت نبوة قط بمشيئة إنسان، بل تكلم أناسُ الله القديسون، مسوقين من الروح القدس" (بطرس الثانية ١:٢١).

الأَلْبَابِ﴾ (آل عمران:٧). ويقول- عزَّ من قائل: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُّتَشَابِهاً مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَن يُضْلِلْ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ (الزمر:٢٣).

وربما كانت الترجمات المتاحة في ذلك الوقت لمعاني القرآن الكريم باللغة الإنجليزية، غير وافية بتقديم روح القرآن ومعانيه للغربيين؛ ولذا عجزوا عن فهمه، كما قال كارلايل نفسه:

"إن الترجمة تذهب بأكثر جمال الصنعة، وحسن الصياغة. ولذلك لا عجبَ إذا قلتُ: إن الأوروبي يجد في قراءة القرآن أكبر عناء".

رد كارلايل على الزاعمين بأن الإسلام انتشر بالسيف:

يبين كارلايل أن دعوة محمد كانت بالحكمة والموعظة الحسنة، فلما وجد أن القوم الظالمين لم يكتفوا برفض رسالته السماوية، وعدم الإصغاء إلى صوت الحق، حتى أرادوا أن يُسكتوه، فلا ينطق بالرسالة.

فإن أولئك القوم أغلقوا آذانهم عن كلمة الحق، وشريعة الصدق، وأبوا إلا تماديًا في ضلالهم، يعبدون الأصنام، ويستبيحون الأعرض، ويئدون البنات، ويشربون الخمر، ويلعبون القمار، ويخطفون النساء، ويسلبون، وينهبون، ويَقتلون النفسَ التي حَرَّم الله قتلها، ويأتون كل إثم ومنكر. فلما دعاهم إلى ترك كل تلك الموبقات، وعبادة الله وحده، تآمروا لقتله، واضطروه للهجرة من بلده ومن آمن معه.

وقد جاءهم محمد ﷺ من طريق الرفق والأناة، فأبوا إلا عتوًا وطغيانا، فليُجْعَلِ الأمرُ إذنْ إلى السيف الذي أرادوا، وليدفع عن نفسه وعن دعوته كل معانَد محارب، كما قال الله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا

وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (الحج:٣٩-٤٠).

لذا ليس من الصواب القول هكذا بأن محمدًا نشر دينه بالسيف، بل هذا من تشنيع بعض الغربيين، الذين يرد عليهم كارلايل بما يلي:

١. ما هو الذي أوجدَ السيف؟ هو قوة ذلك الدين، وأنه حق. والرأي الجديد أول ما ينشأ يكون في رأس رجل واحد، فالذي يعتقده هو فرد، فردٌ ضد العالم أجمع. فإذا تناول هذا الفرد سيفا، وقام في وجه الدنيا، فقلما والله يضيع.

٢. أن الحق ينشر نفسه بأية طريقة، حسبما تقتضيه الحال. أوَلَمْ تروا أن النصرانية كانت لا تأنف أن تستخدم السيف أحيانا؟ وأنا لا أحفل: أكانَ انتشارُ الحق بالسيف، أم باللسان، أم بأية آلة أخرى. فلندعْ الحقائق تنشر سلطانها بالخطابة، أو بالصحافة، أو بالنار. لندعها تكافح، وتجاهد بأيديها، وأرجلها، وأظفارها؛ فإنها لن تَهزم إلا ما كان يستحق أن يُهزم. وليس في طاقتها قط أن تفنى ما هو خير منها، بل ما هو أحط وأدنى.

٣. وضرب مثلا من الطبيعة بالقمح وما يحيطه من قشور، فالطبيعة لا تشترط في الشيء إلا أن يكون صادقَ اللباب، حرَّ الصميم. فإذا كان كذلك حمته وحرسته، أو كان غير ذلك لمْ تحمْهِ، ولمْ تحرسْهُ. أليس شأن حبوب القمح هذه والطبيعة هو شأن كل حقيقة كبرى، جاءت إلى هذه الدنيا، أو تجئ فيما بعد؟ أعني: أن الحقيقة مزيج من حق وباطل، نور في الظلام[1].

[1] هذه فلسفة من الكاتب لا نوافقه عليها؛ فالإسلام حقيقة إلهية، لا شية فيها؛ تهدي إلى الحقِ، وإلى طريق مستقيم؛ لأنه تنزيل من لدن حكيم حميد. كما يقول الله تعالى: {وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ

فرية شهوانية الدين الإسلامي:

يبين كارلايل أن كل ما قيل وكتب في هذا الجانب يعد جورًا وظلمًا. ودليله ما يلي:

١. أن الذي أتى محمد بإباحته- مما تُحرِّمه المسيحية- مثل تعدد الزوجات، والطلاق- لم يكن مستأنفا، وإنما كان جاريًا متبعًا لدى العرب من قديم الأزل. ولدى غيرهم من الأمم في ذلك الوقت.

٢. أن الشريعة الإسلامية قللَت من هذه الأشياء كثيرًا، وجعلَت عليها من الحدود ما كان في الإمكان. فقد كان تعدد الزوجات بلا حدود. فجعل الإسلام أقصاه أربع. وكان الطلاق بلا حدود، فجعل الإسلام أقصاه ثلاث.

٣. أن الدين الإسلامي ليس بالسهل، ولا بالهين. فقد فرض صيام شهر رمضان، والوضوء قبل الصلاة في الحر والبرد، وإقامة الصلاة خمسًا في اليوم، والتصدق بجزء من أربعين من الثروة النقدية كل عام. والحرمان من الخمر، والقواعد الصعبة الشديدة في تحريم اختلاط الرجال بالنساء، وتحريم التبرج والعري، وتحريم الزنا، والنهي عن النظر إلى المفاتن الجسدية نظرة شهوة...إلخ.

إن الإسلام خاطب أشرف ما في النفس، لا أحطه. والناس لم يقبلوه لسهولته- كما يزعم أعداؤه من الغربيين. وإنما قبلوه لما يثير في قلوبهم من دواعي الشرف والعظمة، والإيمان والطهارة.

نُوراً نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاء مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ} (الشورى:٥٢). وربما يقصد كارليل فهم البشر لأوامر الدينَ وأعمالهم عَمومًا. فالأمر الإلهيّ مطلق، وأما البشري فنسبي.

الجنة ونعيمها في الإسلام:

ينكر بعض الغربيين تغلب الحسية والمادية على وصف الجنة والنار في الإسلام. وقد جهد كارلايل في الرد عليهم، فأرجع العيب في ذلك على الشراح والمفسرين، وأتى بما في القرآن من بعض ملاذ الجنة الروحانية. ودلل على براءة الإسلام من الميل إلى الملاذ بصوم شهر رمضان، الذي تلجم فيه الشهوات، وتزجر النفس عن غاياتها.

ولكنا نرى في هذه المسألة غرابة في التفكير الغربي. هل الفكر الغربي البشري هو الذي اهتدى إلى عالم الغيب، فرأى وصف ما في الجنة والنار من نعيم وعذاب؟

إن الله ﷻ هو الذي يبين حقيقة ما في الجنة والنار، لا أذواق الغربيين، ولا أذواق الشرقيين. فأما القرآن الكريم، وسنة رسوله محمد ﷺ، فقد أثبتت نعيم الجنة، وعذاب النار صنوفا وألوانا، حسيًا ومعنويًا. فإذا آمنا بأن القرآن كلام الله حقا، فلابد أن نؤمن بكل ما ورد فيه.

وعلى كل، لنرَ ما في الكتاب المقدس. أتي في وصف شجر الجنة، وثمرها المعد للأكل: "وأنبت الرب الإله من الأرض كلَّ شجرة شهية للنظر وجيدة للأكل. وشجرة الحياة في وسط الجنة، وشجرة معرفة الخير والشر."[1].

وأتى في إنجيل متَّى (٢٦:٢٩) أن المسيح قال لتلاميذه: "وأقول لكم: إني من الآن لا أشرب من نتاج الكرمة هذا، إلى ذلك اليوم، حينما أشربه معكم جديدًا، في ملكوت أبي".

وفي إنجيل لوقا (١٤:١٥): "فلما سمع ذلك واحد من المتكئين قال له: طوبى لمن يأكل خبزًا في ملكوت الله".

[1] تكوين ٢:٩.

وفي إنجيل لوقا (٢٢:٣٠) أن المسيح قال لتلاميذه: "لتأكلوا وتشربوا على مائدتي في ملكوتي، وتجلسوا على كراسي، تدينون أسباط إسرائيل الاثني عشر".

وأتى في وصف عذاب النار، أن المسيح قال: "وإن أعثرتك رجلك فاقطعها. خير لك أن تدخل الحياة أعرج، من أن تكون لك رجلان، وتُطرح في جهنم، في النار التي لا تُطفأ"[1].

وفي سفر الرؤيا (٢٠:١٠): "وإبليس- الذي كان يضلّهم- طُرح في بحيرة النار والكبريت، حيث الوحش والنبي الكذاب. وسيُعذبون نهارا وليلا إلى أبد الآبدين".

هذا بعض ما في الكتاب المقدس، بقديمه وجديده.

وإني أرى كلام الغربيين في هذا الجانب عجبًا: فهم يتهمون الإسلام والمسلمين بالشهوانية والمادية، مع أنهم هم الذين يغرقون في الأهواء والشهوات ليل نهار. ويعترضون على الأوصاف الحسية للجنة، وهم الذين يتقلبون في الحسيات حتى ظهرت فيهم الأمراض الحسية الخطيرة، كالزهري، والسفلس، والإيدز. وإدمان الخمر والمخدرات.

فليدعوا الكلام في الروحانيات لأهلها.

هل آمنَ كارلايل بأن محمدًا رسولُ الله؟

نقول جوابًا على هذا السؤال: نعم. ودليله واضح من قول كارلايل:

"لقد أخرج الله العرب بالإسلام، من الظلمات إلى النور، وأحيى به من

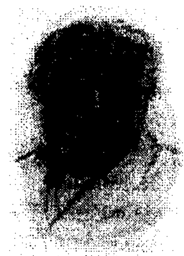
---

[1] مرقس ٩:٤٥.

العرب أمة هامدة، وأرضاها مدة. وهل كانت إلا فئة من جوالة الأعـراب، خاملة فقيرة، تجوب الفلاة، منذ بدءِ العالم، لا يُسمع لها صوتٌ، ولا تُحسُ منها حركة! فأرسل الله لهم نبيًا، بكلمة من لدنْهُ، ورسالة من قِبَلِـه. فـإذا الخمول قد استحال شهرة، والغموض نباهة، والضعة رفعة، والضعف قوة، والشرارة حريقا، وَسِعَ نورُهُ الأنحاءَ، وعَمَّ ضـوءُهُ الأرجـاءَ، وعقـد شـعاعُهُ الشمال بالجنوب، والمشرق بالمغرب".

دكتور محمود النجيري

ترجمة توماس كارليل



وُلِد توماس كارليل في قرية أكلفكان بإقليم أناندال بجنوبي اسكوتلاندا لأربع خلون من شهر تشري (١٧٩٥م). وذلك قبل نهضة نابليون لغزو العالم بأربعة أشهر، وقبل وفاة روبرت بارنز، شاعر القرن الثامن عشر بسبعة أشهر.

ولو أنه ولد على بضعة أميال من جنوب تلك القرية؛ لكان رجلا إنجليزيًا.

كان أبوه بناءً، وبيديه بنى البيت الذي وُلد فيه ابنه- دليل على متانة أخلاق الرجل، واستبداد ذهنه، واستقلال رأيه، واستغنائه عن الغير بقوة نفسه. وكان قليل الكلام، كثير العمل، جلد الحصاة، صليب العود. ولكنه ليس بفظ، ولا غليظ. فكأن قلبه بئر السلسل الزلال، حولها من الحجر الأصَمِّ سور وحجاب.

وأبتْ أخلاقه أن تُجاور؛ فهجر القوم الذين كان يعيش بينهم أولا، وانضمَّ إلى فئة من أهل الخلاف والسخط.

ولو أنه أصاب من العلم حظًا أوفر؛ لجاز أن يكون مدير بلده، ولكنه كان وحاله تلك يخيف المدير ويقلقه. وهو الذي أراده مدير بلده حين يقول: "أعْطِ الرجل أجرته، ودعْه يذهب عنَّا؛ فإنه وعْرُ المقادة؛ صعب المراس".

وكان حسَن البيان، مشرق ديباجة الكلام، كثير الاستعارة والتشبيه،

على جهله معنى التشبيه والاستعارة. وهذا برهان على أن ابنه توماس، إنما عنه- لا عن والدته- ورث الفحولة والعبقرية.

أما والدة كارليل، واسمها مارجريت ايتكين، فكانت ورعة تقية، شفيقة حدبة، رحيمة، كثيرة الشغف والحنان، واللهف والحنين، دمثة الجناب، مأنوسة الجانب، مأمونة الناحية، طلقة الجو، رطبة الظل.

وقد قال عنها كارليل: "ما أنست بإنسان قط أنسي بوالدتي، ولا وجدت ممرحًا إلا في ساحة كرمها، ولا مرتعًا إلا في كنف حلمها، ولا مرعى في غير روضة شيمها، ولا مشربًا في خلاف غدير طبعها".

وحُقَّ له أن يقول ذاك عن أمٍّ، كانت عليه أبدًا خفاقة الأحشاء، قلقة الضلوع، وعلى مصلحته ساهرة المقلة، جمة الرجاء، تلعاء الجيد.

تلقى كارليل مبادئ العلم في مدرسة القرية، ثم في مدرسة قرية اسمها "أنان". ثم دخل جامعة أدنبرج، في الثالثة عشرة من عمره. وفي التاسعة عشرة، أي في عام (١٨١٤م)، صار مدرسًا للرياضة بمدرسة "أنان". وبعد ثلاثة أعوام من ذلك، صار رئيس مدرسة ببلدة "كركالدي".

وهنا أحب فتاة مليحة تدعى مرجريت جوردون. وهي التي وصفها في كتابه "فلسفة الملابس" باسم "بلومين"، والتي كادت تكون زوجته، لولا تعرض أصدقائها.

وفيها يقول: "وكان الفتى المنفرد- يعني نفسه- صاحب الخيال المشتعل، يكبر مليكات العالم- يعني النساء- ويقدسهنَّ، ويرى لهنَّ جلالا إلهيًا. ولم يك حظه منهنَّ، إلا حظ اللمس من الخيال، والغليل[1] من الآل[2].

فكن له: كأنهن من الهواء مخلوقات، ومن الضياء مصوغات، أرواحٌ في

[1] الغليل: العطش.

[2] الآل: السراب. وهو ما يحسبه الظمآن ماءً، وليس بماء.

أشباح، وأذهان في ألوان.

وفي سنة (١٨١٨م)، ترك حرفة التعليم، ساخطًا عليها، وعلى أهلها، صائحًا: **"لا طاقة لي بعد بهذه الحرفة الممقوتة"!**

وذهب إلى أدنبرج، وليس ينوي عملا مخصوصًا، ولا يدري ماذا يكون من أمره، فدرسَ أبغض العلوم وأثقلها، وهو علم المعادن. ولكنه كان من أنفع الأشياء له؛ حيث اضطره إلى تعلم الألمانية، التي كانت من أسباب ظهوره ورفعته.

وكان إذ ذاك يعيش من دروس خاصة، وترجمة مقالات علمية عن الفرنسية، خلاف مؤن من الخبز والزبد، كانت تأتيه من دار أبيه.

وقد كان في تركه حرفة التعليم، وشذوذه عن الطرق المألوفة، والأساليب المعروفة- ما أسخط والديه. ولكنه لم يُبالِ بسخط القوم، ولا بذم الناس. وأبى إلا مضيًا على عزمه، وتدفقًا في مجراه، قائلا: إنه مستبد برأيه، واثق من نفسه، وأنه أقوى من دواهي الدهر، وأنه لابد له من الانتصار على الأخطار يومًا ما.

عاش كارليل ستة وثمانين عامًا، قضاها في وضع التآلف الجليلة، بين فلسفة، وتاريخ، وترجمة، وعظة، وحكمة.

وأشهر مؤلفاته كتاب "الأبطال"، هذا الذي تحمل بعضًا منه في يدك، وكتاب "الثورة الفرنسية"، وكتاب "الماضي والحاضر"، وكتاب "سارتور رزارتوس"، أو "فلسفة الملابس"[1]، و"سيرة كروموبل"، و"تاريخ فريدريك"، ملك بروسيا.

توفي كارليل سنة (١٨٧١م).

---

[1] صدر كتاب فلسفة الملابس ضمن منشورات مكتبة الأسرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة.

مقدمة المُعَرِّب

كتاب الأبطال هذا الذي بين يديك، يمتاز بشرحه تعظيم البطولة، وتقديس عظماء الرجال، شرحًا وافيًا دقيقًا، لم يدعْ لقائل مجالا. وإنَّ مَن قرأ هذا الكتاب، وكان كافرًا ملحدًا، مستهزئًا بعظمة ابن آدم، مُنكرًا عبقرية الإنسان، ساخرًا من عظماء الرجال وعشاقهم- فلمْ يشفَ من داء الكفر والجحود، والاستهزاء والسخر بعد قراءته، فليس في طاقة القلم، ولا سلطان البلاغة، ولا في قوى الإنس والجن، ما يشفي علته، أو يُغيِّر ما به.

وأحسن ما جاء في ذلك الكتاب، فصل عن المصطفى ﷺ. وكان الرسول قبل ذلك هدفًا لأقلام الكثيرين من الغربيين، ولاسيما أهل القرن الثامن عشر، قرن فولتير. أعني قرن الإلحاد والكفر. يرمونه- جهلا وكنودًا- بقواذع[1] الهجاء، وقواذف الذم.

قال "ريتشارد جازبيت":

"فلما كتب كارليل مقالته عن الإسلام، ينافح فيها عن محمد، ويناضل دونه. لم يبقَ هجَّاءٌ أطلق يده في عرْض محمد ﷺ، إلا قبضها مجذومة شلاء، ولا فحَّاشٌ يدري[2] ذلك الأديم[3] الأملس، وتلك الصحيفة البيضاء، بسهام السباب، إلا وردَّتْ سهامُه في نحره".

---

[1] قواذع: جمع قاذع، وقذَعَهُ: رَماهُ بالفُحْش وسُوءِ القَوْلِ، كأَقْذَعَهُ (القاموس المحيط، مـج١، ص٩٦٧).

[2] يدري: يطعن.

[3] الأديم: الجلد.

حتى راح شرف النبي في تلك الديار- بفضل الفيلسوف الأكبر- صحيح الأديم، موفور الجانب. فحُقَّ على عصبة الإسلام جميعًا، أن تشكر لذاك البطل الجليل، هذه اليد البيضاء، والمنة الغراء. ولعمري- لو أنهم نصبوا له على كل مئذنة ذِكرًا، وزيَّنوا باسمه جدران المساجد، وخطب المنابر، لما كانوا في أداء واجبه إلا مقصرين، وعن القيام ببعض حقه عاجزين.

فأمَّا من حيث الكتابة، فقد كان كارليل من أكتب الناس، ومن أشد البلغاء تمكنًا من اللسان، واقتدارًا على اللغة.

وأنت الذي تدعو الكلام بقدرة فيأتيه وحشيُّ الكلام وآنَسُه

وإنه ليرجحُ لدي الموازنة بمعظم من سبقه من الفحول، أمثال: جونسون، وريتشار بارنز. وكأني به كان يُبصر أجزاءً من نفسه، في صور أولئك الأبطال. وإنه أعلى قيمة، وأشرف قدرًا. وما أظنه خليقًا أن يُقارَن إلا بالأنبياء.

وقد كان في مرارة الجِدِّ، ومضاضة الحزن، شبيهًا بدانتي، وروسو. ولكنه كان بقوة دانتي، أشبه منه بضعف روسو. وكان دانتي قليل المزاح، ولا مزاح لروسو.

وفي مؤلفات دانتي وروسو صحف جدية، كأنها لقلة الفكاهة والهزل قفار ملس. ولكن ما يقابلها في تآليف كارليل مزخرف بأفانين المزاح، وألوان المجون، بينها ينابيع الهزل تفيض وتنفجر، وسيوح الفكاهة تسيل وتنهمر. وكأني به يقول- مع صديقه جونسون: لقد حاولتُ أن أكون فيلسوفًا، فأبى المزاح إلا أن "يعترضني في طريقي".

وليس في جميع كُتَّاب القرن التاسع عشر من يقارب- في المزاح والهزل- ذلك الرجل الجاد الحاد، الذي يلبس أقسى ظاهر من العبوس

والنفرة والتهكم. ولم يرَ الناسُ منذ عهد "أرستوفانيس" رجلا- غير كارليل- خلط المزاح بالشعر، ولزَّ[1] الخيال والمجون في قرْن. ولكن كارليل بلغ في ذلك النحو أقصاه، وأدرك في هذا الغرض منتهاه.

[1] لزَّ الشيءَ بالشيء يَلُزُّه لَزًّا، وألَزَّه: ألزمه إياه. واللَّزَزُ الشِّدَّةُ. ولَزَّه يَلُزُّه لَزًّا ولَزازاً، أي شَدَّه، وألصقه (لسان العرب ٥/٤٠٤).

مقدمة كارلايل

إنما يضمني وإياكم هذا المقام وتواليه، للكلام شيئًا عن عظماء الرجال، ومظاهرهم على مراسح[1] الحياة، والأشكال التي تشكّلوها في تاريخ البشر، وآراء الناس فيهم، وماذا أحدثوا من الأعمال. للكلام عن الأبطال، وعمَّا استقبلهم به أهالي أزمانهم، وعمَّا صنعوا هم من جلائل الأمور.

ولعل هذا مبحث عويص، لا أراني موفيه حقه. مبحث- لعمر الله- قصي الغاية، يشق على نزع الخواطر مرماه، ويقع وراء جهد الأوهام منتهاه، وما ظنكم بمبحث هو التاريخ بحذافيره؟! إذ في اعتقادي أن التاريخ العام، تاريخ ما أحدث الإنسان في هذا العالم، إنما هو تاريخ مَن ظهر في الدنيا مِن العظماء؛ فهم الأئمة؛ وهم المكيِّفون للأمور؛ وهم الأسوة والقدوة؛ وهم المبدعون لكل ما وفق إليه أهل الدنيا.

وكل ما بلغه العالم، وكل ما تراه قائمًا في هذا الوجود كاملا متقنًا، فاعلم أنه نتيجة أفكار أولئك العظماء، الذين اصطفاهم الله، وأرسلهم إلى الناس ليؤدي كلٌّ ما ناطته به[2] القدرة الإلهية من الخير. فروح تاريخ العالم إنما هو تاريخ أولئك الفحول. وظني أنه مبحث لن يسعه هذا المقام.

بيد أن من أسباب العزاء، أن في ذكرى العظماء، كيفما كانت نفعًا وفائدة. والرجل العظيم لا يزال بعد موته ينبوع نور يتدفق. فليس أحسنَ من مجاورته شيءٌ: نورٌ يضيء، وكان يضيء ظلمات الحياة. وليس هو كسراجٍ

[1] مراسح: لفظة مقلوبة، مستخدمة للتندر على المسارح.

[2] ناطته به: ربطته به.

أُشعلَ، ولكنما نجم شبته[1] يد الله، بين أشباهه من كواكب الأفق.

هو- كما قلتُ- ينبوعُ نور، يتدفق بالحكمة، ومعاني الرجولة، والشرف الكبير. وهو الذي في شعاعه أنسُ الأرواح، وروح النفوس، ومتعة الخواطر.

وليس في ظنّي أن أحدًا منكم، يُحْجِمُ بُرْهة عن ورود تلك المناهل العذبة، كيفما كان طريق المورد. ويقيني أن نظرة في تواريخ الأبطال- الشتى الصنوف- الذين أنا آخذ الآن في سرد سيرهم، جديرة أن تكون بمثابة نظرة في مخ تاريخ البشر، وصميم لبابه.

وما أسعدني، لو أستطيع في مثل هذا العصر، الذي ضعُفَ فيه إجلال الرجل للرجل، أن أُفهمَكُمْ شيئًا من معاني عظمة الأبطال وجلالهم! أي من معاني البطولة، والبطولة في مذهبي هي العروة المقدسة، التي تعقد ما بين الرجل العظيم، وبين سائر الناس- ما أسعدني لو أتيح لي ذلك! ولكني محاول وباذل مجهودي.

لقد قيل، وصدقًا قيل: إن أهمَّ ما في الرجل دينه. والأمة مثل الفرد في ذلك.

ولست أذهب بلفظة الدين إلى النِّحْلة التي يتخذها الفرد، والمذهب الذي ينتسب إليه، والقواعد المليّة التي يعددها، ويشهد بها. فقد ترى الرجل الذي ذلك شأنه، يُسْفِلُ إلى أدنى حضيض اللؤم والخسة، على الرغم من شدة تمسكه بقواعد الدين!

فهذا ما لا أسميه الدين. هذه الإقرارات والاعترافات، أبعد ما يكون في الحقيقة من الدين؛ إذ هو اعتراف وإقرار، لم يصدرْ إلا من ظواهر الرجل

[1] شبته: حسَّنته.

وبواديه- أعني مِن ناحية اللسان والقوى البرهانية. وذلك أقصى ما عنده.

ولكن جوهر المسائل للرجل، والأمر الذي عليه يترتب سائر الأمور، هو ذلك الشيء الذي يعتقده حق الاعتقاد، ويوقن به كل اليقين، فيما يتعلق بالروابط الجوهرية، التي تربطه بهذا الكون الجَمِّ[1] الأسرار، وفيما يتعلق بواجبه في هذه الدار ووظيفته.

ذلك هو دينه. فإذا علمتَ عن الرجل ذلك، علمتَ أيَّ رجلٍ هو، وأيَّ شيءٍ يجدر به أن يصنعه في هذه الحياة.

لذلك كان أول سؤالنا عن الرجل، أو الأمة: ما ديانته، أو ديانتهم؟ وهل هي الوثنية، أو تعدد الآلهة؟ أعني تمثيل سر الوجود تمثيلا حسيًا وعبادة القوى الطبيعية؟

أم هي النصرانية، والاعتقاد بعالم سري حقيقي، وبخلود الروح، وارتكاز الوقت على عالم الأبدية؟ أعني بذلك استبدال دولة الأسرار المقدسة- التي هي من أشرف وأسمى- بدولة الوثنية وعواملها من قوى الطبيعة.

أم هي الشك والريبة؟

هل هناك عالم خفي، وسر مجهول، أم لا؟ بل ربما كان إلحادًا محضًا، وكفرًا مبينًا؟

فعندي: أن الإجابة عن هذا السؤال، هو إعطاؤنا روح تاريخ الفرد أو الأمة؛ إذ إن أعمال الأمة أو الفرد، إنما هي بنات أفكارهم، وما نتجت ظواهر الآثار، إلا من مستسِّر الضمائر.

ومن ثم، أقول: إن دين الأمة هو أهم ما لديها. فجدير بنا في هذه

---

[1] الجم: الكثير.

المحاضرات أن نجعل الوجهة الدينية من أخطر وجوه البحث، وأكبر أركانه؛ فإنه متى أجدنا معرفة هذه، بَرَحَ الخفاءُ عن كل شيء.

(مدخل)

ننتقل الآن من تلك العصور الخشنة- عصور الوثنية الشمالية[1]- إلى دين آخر في أمة أخرى- دين الإسلام، في أمة العرب. وما هي إلا نقلة بعيدة، وبَوْنٌ شاسع. بل أي رفعة وارتقاء نراه هنا، في أحوال العالم العامة وأفكاره؟!

في هذا الطور الجديد، لم يرَ الناسُ في بطلهم إلهًا، بل رسولا بوحي من الإله[2].

وهذه هي الصورة الثانية للبطل.

فأمَّا الأولى، وأقدَمُ الجميع، فقد ذهبت إلى حيث لا تعود أبدًا؟ ولن ترى الناس يؤلهون البطل مهما عَظُمَ. بل لنا أن نسأل: أكان من أي ناسٍ قط: أنهم عمدوا إلى رجل يرونه ويلمسونه، فقالوا: هذا خالق الكون؟!

أنا لا أظن ذلك. إنما يقولون هذا القول في رجل يتذكرونه، أو كانوا رأوه.

على أن هذا أيضًا لن يكون قط، ولن يُؤَلَّهَ البطل من ثَمَّ فصاعدًا، ولو بلغ منتهى العظمة[3].

---

[1] هذا ما تناوله كارلايل في المحاضرة الأولى. وهي وثنية قدماء النرويج.

[2] يقول الله تعالى في كتابه عن رسوله الكريم: {قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاء رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً} (الكهف:١١٠).

[3] إذن لماذا يؤله النصارى للآن المسيح عيسى ابن مريم؟! وهل هذا إلا محض الردة إلى

لقد كان اعتبار الرجل العظيم إلهًا غلطة وحشية فاحشة! ولكن دعنا نقل: إن الرجل العظيم ما برح في جميع الأزمان لغزًا من الألغاز، لا ندري كيف نفسِّره، ولا كيف نستقبله ونعامله!

ولعل أهم مزايا جيل من الأجيال، هو كيفية استقباله لرجله العظيم. وسواء استقبلوه كإله[1]، أو كنبي، أو كيفما كان- فذلك هو السؤال الأكبر.

ومن طريق إجابتهم عن هذا السؤال، وكيفية مذهبهم في ذلك الأمر، يمكننا أن نُبْصِرَ صميمَ حالتهم الروحانية، كما لو كان من خلال نافذة.

فإن الرجل العظيم، إذا كان مصدره واحدًا- أعني من ذات الله، فهو جنس واحد.

وأرجو أن أُوَفَّقَ إلى إفهامكم: أن جميع هؤلاء من طينة واحدة، وأنه لم يُحدث الخلاف العظيم بين أحدهم والآخر، إلا الهيئة التي يكتسونها هم، أو الطريقة التي يستقبلهم بها أهل زمنهم.

الوثنية؟! يقول الله ﷻ: {لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُواْ اللّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللّهُ عَلَيهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ} (المائدة:٧٢).

[1] استقبل اليهود المسيح شر استقبال، فكذبوه، وآذوه، وسخروا منه، ورموه وأمه بأبشع القواذع. وقد صور القرآن الكريم ذلك: {وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ} (الصف:٦). وأدّى هذا بالنصارى إلى المبالغة في شأنه، فجعلوه مساويًا لله تعالى، وولدًا له، مع أنه عبد الله ورسوله، كغيره من أنبياء الله ورسله. يقول الله ﷻ في ذلك: {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ وَلاَ تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ إِلاَّ الْحَقِّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَآمِنُواْ بِاللّهِ وَرُسُلِهِ وَلاَ تَقُولُواْ ثَلاَثَةٌ انتَهُواْ خَيْراً لَّكُمْ إِنَّمَا اللّهُ إِلَـهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَات وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَفَى بِاللّهِ وَكِيلاً} (النساء:١٧١).

١. [من أكبر العار القول بأن محمدًا ﷺ كذاب]

لقد أصبح من أكبر العار، على أي فردٍ متمدين من أبناء هذا العصر، أن يُصغِي إلى ما يُظن من أن دين الإسلام كذبٌ، وأن محمدًا خَدَّاعٌ مُزَوِر. وآن لنا أن نحارب ما يُشاع من مثل هذه الأقوال السخيفة المُخجلة؛ فإن الرسالة التي أدَّاها ذلك الرسول ما زالت السراج المنير، مدة اثني عشر قرنًا[١]، لنحو مائتي مليون من الناس أمثالنا[٢]، خلقهم الله الذي خلقنا[٣].

أفكان أحدكم يظن: أن هذه الرسالة التي عاش بها، ومات عليها هذه الملايين الفائتة الحصر والإحصار. أكذوبة وخُدْعة؟!

أما أنا، فلا أستطيع أن أرى هذا الرأي أبدًا. ولو أن الكذب والغش يروجان عند خلق الله هذا الرواج، ويصادفان منهم مثل ذلك التصديق والقبول، فما الناس إلا بُلْهٌ ومجانين، وما الحياة إلا سَخَفٌ وعبَثٌ وأضلولة، كان الأولى بها أن لا تُخلق[٤].

---

[١] الآن أربعة عشر قرنًا.

[٢] الآن نحو مئتي مليون وألف مليون من المسلمين.

[٣] يقول الله تعالى عن محمد ﷺ: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً وَدَاعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُّنِيراً} (الأحزاب:٤٥-٤٦).

[٤] يقول "ديسون" في كتابه "الشرائع": «وليس يزعم أحد اليوم أن محمدًا راح يزوِّر دينًا، وأنه كاذب في دعواه؛ إذا عرف محمدًا، ودرس سيرته، وأشرف على ما يتمتع به دينه من تشريعات تصلح أن تظل مع الزمن مهما طال. وكل من يكتب عن محمد ودينه ما لا

فوا أسفاه!

ما أسوأ هذا الزعم!

وما أضعف أهله، وأحقهم بالرثاء والمرْحمة!

وبعد، فعلى مَن أراد أن يبلغ منزلة ما في علوم الكائنات، أن لا يُصَدِّقَ شيئًا ألبتة من أقوال أولئك السفهاء؛ فإنها نتائجُ جيلُ كفرٍ، وعصرُ جُحود وإلحاد. وهي دليل على خبث القلوب، وفساد الضمائر، وموت الأرواح في حياة الأبدان.

ولعلَّ العالمَ لمْ يَرَ قطُّ رأيًا أكفرَ من هذا، وألأَمَ!

وهل رأيتم قط- معشر الإخوان- أن رجلاً كاذبًا، يستطيع أن يُوجِدَ دينا وينشره؟!

عجبًا والله!

إن الرجل الكاذب لا يقدر أن يبني بيتا من الطوب! فهو إذا لم يكن عليمًا بخصائص الجير، والجَصِّ[1]، والتراب، وما شاكل ذلك، فما ذلك الذي يبنيه ببيت. وإنما هو تلٌّ من الأنقاض، وكثيب[2] من أخلاط المواد. نعم! وليس جديرًا أن يبقى على دعائمه اثني عشر قرنا[3]. يسكنه مائتا مليون من الأنفس[4]. ولكنه جدير أن تنهار أركانه فينهدم؛ فكأنه لم يكن!

وأنه كاذب في دعواه؛ إذا عرف محمدًا، ودرس سيرته، وأشرف على ما يتمتع به دينه من تشريعات تصلح أن تظل مع الزمن مهما طال. وكل من يكتب عن محمد ودينه ما لا يجوز، فإنما هو من قلة التدبر وضعف الاطلاع».

[1] الجصّ: بفتح الجيم وكسرها، طلاء أبيض، يُبنى به، وهو معرب (لسان العرب ١٠/٧. مختار الصحاح، ص١١٩).

[2] كثيب: تجمع عظيم مرتفع، مثل الجبل (المصباح المنير ٢/٦٣٥).

[3] الآن أربعة عشر قرنا.

[4] ماذا لو أراد مقدر أن يُقدر عدد الذين آمنوا بدعوة محمد، واهتدوا برسالة الإسلام التي

وإني لأعلم أنه على المرء أن يسير في جميع أمره طبقَ قوانين الطبيعة. وإلا أبتْ أن تجيب طلبته، وتعطيه بغيته.

كذبٌ- والله- ما يُذيعه أولئك الكفار، وإن زَخْرَفوهُ حتى خيَّلوه حقًا. وزورٌ وباطلٌ، وإنْ زيَّنوه حتى أوْهَموه صدْقًا. ومحنةٌ- والله، ومصابٌ أن ينخدع الناس- شعوبًا وأممًا- بهذه الأضاليل! وتسود الكَذَبَة، وتقود بهاتيك الأباطيل! وإنما هو- كما ذكرت لكم- من قبيل الأوراق المالية المزوَّرة، يحتال لها الكذابُ حتى يُخرجها من كفِّه الأثيمة، ويَحِيقُ مُصابها بالغير، لا به.

وأي مصاب- وأبيكم؟!

[محاربة الوثنية أهم خواص محمد ﷺ]:

لقد كان من أهم خواص محمد ﷺ، ومما امتاز به الأنبياء عامة- شدة الإنكار للوثنية. وهو أكبر مسائل الرسل.

بعثه الله بها منذ بعث إلى الآن. لا شك أن ذلك بعيد عن الحصر، وأن العدد مليارات. لذلك نقول: إن محمدًا ﷺ أكثر نبي اهتدى به بشر، وعرفوا الحق، وآمنوا بالله. وقد وضح محمد ﷺ ذلك، فقال: "ما من الأنبياء نبي إلا أعطي من الآيات ما مثله أومن أو آمن عليه البشر وإنما كان الذي أوتيته وحيا أوحاه الله إلي فأرجو أني أكثرهم تابعا يوم القيامة" (أخرجه البخاري، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب قول النبي ﷺ "بُعثتُ بجوامع الكلم"، حديث: ٦٨٤٦. ومسلم، كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ إلى جميع الناس ونسخ الملل بملة الإسلام، حديث: ١٥٢). وقال النبي ﷺ: "عُرِضَتْ عليَّ الأمم، فرأيت النبي ومعه الرهيط، والنبي ومعه الرجل والرجلان، والنبي ليس معه أحدٌ، إذ رُفِعَ لي سوادٌ عظيمٌ، فظننتُ أنهم أمتي، فقيل لي: هذا موسى ﷺ وقومه. ولكن انظر إلى الأفق! فنظرتُ، فإذا سواد عظيم. فقيل لي: انظر إلى الأفق الآخر! فإذا سواد عظيم. فقيل لي: هذه أمتك، ومعهم سبعون ألفا، يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب" (أخرجه مسلم، كتاب الإيمان، باب الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب ولا عذاب، حديث: ٢٢٠).

وعبادة الأوثان الميتة، هو ما لمْ يسكتوا عنه قط، ولا أطاقوا رؤيته. بل لا يزالون يشدِّدون النكير عليه، ويَسِمُوْنه بألدَغ مياسم[1] القذع[2] والقذف. وهو عندهم أسُّ الذنوب، ورأسُ الكبائر. وهذا جدير بالتأمل.

وكان بُغض محمد ﷺ لآلهة قريش، المصنوعة من الخشب والشمع؛ لأن شأنه أن يرجع إلى الحقيقة، وينظر في بواطن الأشياء، لا في ظواهرها، مهما صقلَ التمويهُ من أطرافها، وهذَّب التزويق من حواشيها، ومهما أيدتها قريش وعززتها.

لقد حاول كثيرون أن يجعلوا الحكومة لله، بأن يسير الناس جميعًا على كتاب الله، وأن يعلموا أن هذا قانونهم الذي ليس فوقه قانون.

وذلك المبدأ هو ما لا نزال نحاول ونرجو. وما جاءت الأنبياء والرسل إلا لتحقيقه. ولم تزل أمنية كل غيور مخلص، وكل ولي تقي، وكل رسول نبي.

ومحمد هو الذي بَلغَها على الكمال[3].

---

[1] مياسم: جمع ميسم، وهو ما يُوسَمُ به، أي يُجعَلَ به علامة، من كَيٍّ، أو غيره (المصباح المنير ٢/٦٦٠).

[2] القذع: السب والشتم.

[3] أمر الله سبحانه رسوله محمدًا ﷺ بأنِ يحكم بحكمه، وهذا هو أمر الله لكل نبي من أنبيائه، يقول الله تعالى: {وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ عَمَّا جَاءكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً وَلَوْ شَاء اللّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُم فَاسْتَبِقُوا الخَيْرَاتِ إِلَى الله مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ. وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ اللّهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللّهِ حُكْماً لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ} (المائدة:٤٨-٥٠).

٢. [صفات الرجل العظيم]

[إخلاص الرجل العظيم وصدقه]:

أمَّا الرجل الكبير خاصة، فإني أقول عنه يقينًا: إنه من المحال أن يكون كاذبًا؛ فإني أرى الصدق أساسه؛ وأساس كل ما به من فضل ومَحْمَدة. وعندي أنه ما من رجل كبير، كفءٌ للقيام بعمل ما، إلا وكان الصدق، والإخلاص، وحب الخير، أول باعثة على محاولة ما يحاول.

أعني أنه رجل صادق النية، جادٌ مخلصٌ قبل كل شيء. بل أقول: إن الإخلاص- الإخلاص الحر، العميق الكبير- هو أول خواص الرجل العظيم، كيفما كان.

لا أريد إخلاصَ ذلك الرجل الذي لا يبرح يفتخر للناس بإخلاصه. كلا، فإنَّ هذا حقير جدًا.

وايم الله! هذا إخلاصٌ سطحي وقِح. وهو في الغالب غرور وفتنة.

إنما إخلاص الرجل الكبير، هو مما لا يستطيع أن يتحدث به صاحبه. كلا، ولا يشعر به. بلْ لأحسَبُ أنه ربما شعَرَ من نفسه بعدم الإخلاص؛ إذ أين ذاك الذي يستطيع أن يَلزَمَ منهج الحق يومًا واحدًا[١]؟!

---

[١] الأنبياء يلزمون الحق دائمًا. وهم معصومون من كبائر الذنوب. هذه عقيدة المسلمين. أما الأولياء والصالحون، فيجوز عليهم الوقوع في الكبائر، فضلا عن الصغائر. يقول الله تعالى: {وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ} (آل عمران:١٣٥). ويقول

نعم، إن الرجل الكبير، لا يفخر بإخلاصه أبدًا. بل هو لا يسأل نفسه: أهِيَ مخلصة؟ أو بعبارة أخرى أقول: إن إخلاصه غير متوقف على إرادته، فهو مخلص على الرغم من نفسه، سواءٌ أرادَ، أم لم يُرِدْ.

هو يرى الوجود حقيقة كبرى، تروعه وتهوله. حقيقة لا يستطيع أن يهرب من جلالها الباهر، مهما حاول.

هكذا خلق الله ذهنه.

وخِلْقة ذهنه على هذه الصورة، هو أول أسباب عظمته.

هو يرى الكون مدهشًا ومخيفًا، وحقًا كالموت، وحقًا كالحياة.

وهذه الحقيقة لا تفارقه أبدًا، وإن فارقت معظم الناس؛ فساروا على غير هدى؛ وخَبَطوا في غياهب الضلال والعماية.

بل تظل هذه الحقيقة- كل لحظة- بين جنبيه، ونُصْبَ عينيه، كأنها مكتوبة بحروف من اللهب، لا شك فيها، ولا ريب.

ها هي! ها هي!

فاعرفوا- هداكم الله: أن هذه هي أول صفات العظيم. وهذا حَدُّهُ الجوهري، وتعريفه.

وقد توجد هذه في الرجل الصغير، فهي جديرة أن توجد في نفس كل إنسان خلقه الله، ولكنها من لوازم الرجل العظيم. ولا يكون الرجل عظيمًا إلا بها.

سبحانه: {الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى} (النجم:٣٢).

[أصالة الرجل العظيم وصفاء جوهره]:

مثل هذا الرجل، هو ما نُسمِّيه رجلا أصليًا، صافي الجوهر، كريم العنصر- فهو رسول مبعوث من الأبدية المجهولة[1]، برسالة إلينا.

فقد نسميه شاعرًا، أو كاتبًا، أو نبيًا.

وسواء هذا، أو ذاك، أو ذلك. فقد نعلمُ أنَّ قوله ليس بمأخوذ من رجل غيره، ولكنه صادر من لباب حقائق الأشياء.

نعم، هو يرى باطن كل شيء. لا يحجب عنه ذلك باطلُ الاصطلاحات، وكاذب الاعتبارات والعادات والمعتقدات، وسخيف الأوهام والآراء.

وكيف، وإن الحقيقة لتسطع لعينه حتى يكاد يعشى لنورها!

ثم إذا نظرت إلى كلمات العظيم. شاعرًا كان، أو فيلسوفا، أو نبيًا، أو فارسًا، أو ملكًا، ألا تراها ضربًا من الوحي[2]؟!

---

[1] مبعوث من الله ﷻ.

[2] الوحي هو الأمر من الله تعالى، للرسول البشري، برسالةِ هدايةٍ للناس، ينزل بها الرسولُ الملكي، وهو جبريل ﷺ. وقد يُوحي الله تعالى إلى رسوله، من كلامه المباشر، كتابًا يتلوه على الناس، مثلما أنزل: الصحف على إبراهيم، والتوراة على موسى، والزبور على داود، والإنجيل على عيسى، والقرآن على محمد. ويتكلم الرسول- بعد ذلك- بكلام هو إلهام من الله، المعنى من الله، واللفظ من عنده. وهذا ما يسميه المسلمون السُّنة، ويسميه اليهود الوحي الشفهي (ولكنهم يخلطونه بكلام علمائهم). أما كلام الشاعر، وكلام الفيلسوف، وخلافه، فهو كلام بشر، منه الصواب، ومنه الخطأ. ومنه الحق، ومنه الباطل. فهو كلام من عند نفسه. وما فيه من حق، فهو توفيق من الله، وتيسير إلى الخير. وأما المواهب الخاصة، كالشعر، والخطابة، والكتابة، فهي منحة من الله وفضل، يؤتيه من يشاء. ومعاني وألفاظ كل من: الفيلسوف، والكاتب، والشاعر، والخطيب، فهي من قريحته، بما فيها من خيرٍ أو شر، وليست مِن عندِ الله، فضلا عن أن تكون بوحيٍ إلهي. يقول الله تعالى: {وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلا وَحْياً أَوْ مِن وَرَاء حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ} (الشورى:٥١).

[العظيم الذي علّمه الله العلم والحكمة]:

والرجل العظيم- في نظري، مخلوق من فؤاد الدنيا، وأحشاء الكون. فهو جزء من الحقائق الجوهرية للأشياء. وقد دلَّ اللهُ على وجوده بعدة آيات، أرى أنَّ أحدَثها وأجدَّها هو الرجل العظيم، الذي علّمه الله العلم والحكمة؛ فوجب علينا أن نُصغي إليه قبل كل شيء.

وعلى ذلك، فلسنا نَعُدُّ محمدًا هذا قط رجلاً كاذبًا متصنعًا، يتذرع بالحِيَل والوسائل إلى بُغية، أو يطمح إلى درجة ملك، أو سلطان، أو غير ذلك من الحقائر والصغائر. وما الرسالة التي أدَّاها إلا حقٌ صراح، وما كلمته إلا صوت صادقٌ، صادر من العالم المجهول.

كلا، ما محمد بالكاذب، ولا المُلَفِّق. وإنما هو قطعة من الحياة، قد تَفَطَّر عنها قلبُ الطبيعة، فإذا هي شهاب قد أضاء العالم أجمع. ذلك أمْرُ الله، وذلك فضلُ الله، يؤتيه مَن يشاء، والله ذو الفضل العظيم. وهذه حقيقة تدمغ كل باطل، وتدحض حجة القوم الكافرين.

[الحقيقة الكبرى: أن محمدًا ﷺ رجل صادق، ونبي مرسل]:

وهب لمحمد ﷺ غلطات وهفوات[1]!

---

[1] ليس لمحمد غلطات في تبليغ رسالة ربه. أمَّا ما يقوله بصفته البشرية، فيمكن أن يخطئ فيه، وقد قال لنا في قاعدة جامعة: "أنتم أعلم بأمرِ دنياكم" (أخرجه مسلم، كتاب الفضائل، باب وجوب امتثال ما قاله شرعا دون ما ذكرَه ﷺ من معايش الدنيا على سبيل الرأي، ٢٣٦٣). وأما ما يثيره أعداؤه- من المستشرقين والمنصرين- من أقاويل، فمردود عليها تفصيلا، وهي بعيدة عن المنهج العلمي، وبعضها جزء من حملات صليبية حاقدة. تولى الرد عليها عدد من المستشرقين وكتاب الغرب الأحرار، ممن درسوا السيرة المحمدية دراسة علمية موضوعية. ومن هؤلاء جوستاف لوبون. يقول: «إذا ما قيست قيمة الرجال بجليل الأعمال، كان محمدٌ من أعظم مِن عرفهم التاريخ». ويقول الفيلسوف الإنجليزي برنارد شو: «إن أوروبا الآن بدأت تُحسُّ بحكمة محمد، وتعشّق دينه. كما أنها ستبرّئ

وأي إنسان لا يُخطِئ[1]؟!

إنما العصمة لله وحده[2]. فإنه ليس في طاقة أية هفوات أو غلطات، أن تزري بتلك الحقيقة الكبرى، وهي أنه رجلٌ صادق، ونبيٌ مرسل.

وأرانا على العموم نُجسِّم الهفوات، ونجعل من الجزئيات حجبًا تَسْتُرُ عَنَّا الحقائق الكلية.

الهفوات!

أيحسب الناس أنه يخلو منها إنسان؟!

العقيدة الإسلامية مما اتهمتها به من أراجيف رجال أوروبا في العصور الوسطى». وبعد أن درس البروفيسور شيريل (عميد كلية الحقوق بجامعة فيينّا) الإسلام بموضوعية قال: «إن البشرية لتفتخر بانتساب محمد إليها. ذلك الأمي الذي استطاع أن يأتي بشريعة، سنكون- نحن الأوروبيين- أسعد ما نكون لو وصلنا إلى قمتها بعد ألفي عام». وقال القس لوزون: «إن محمدًا ﷺ، وبلا التباس، ولا نكران، مِن النبيين الصديقين، بل إنه نبي عظيم، جليل القدر، رفيع الشأن»، وقال فلكد الأمريكي: «كان عقل محمد من العقول الكبيرة التي قلما يجود بها الزمان».

[1] لا يعتقد اليهود والنصارى للأنبياء عصمة، وهذا من تأثير ما صور به اليهود أنبياءهم في كتابهم المقدس. فصوروا إبراهيم يتاجر بعرضه، وصوروا يعقوب يفعله أيضًا، وصوروا يهوذا يزني بكنته، وصوروا لوطا يسكر، ثم يزني بابنتيه حتى يحبلهما، وصوروا داود يزني بامرأة قائده حتى يحبلها، ثم يدبر قتله، فيرسله في وجه الحرب، في خدعة قذرة! وصوروا سليمان يبني المعابد للآلهة الوثنية ويعبدها!

وبرى المسلمون كل ذلك خطأ وخطيئة. فهذه حياة أهل الفحش والخنا والإجرام، لا حياة الأنبياء. وإن الله ﷻ يعصم دينه أن يكون عند فاجر أثيم، وينزه كتابه أن يكون مَعْرضًا لقصص الفسق والفجور. وإن كانت هذه حياة صفوة الخلق. فماذا يبقى للرعاع؟! وإلامَ يدعوا هؤلاء الأنبياء إن كانت هذه حالهم؟! وإن فعلوا، فلا شك أن الله ﷻ يطردهم من شرف النبوة، وإن تابوا، فلا يفضحهم إلى يوم القيامة!

[2] "العصمة لله وحده". هذه عبارة مُوْهِمة؛ فإن الله ﷻ ليس كالبشر، حتى نُجيز عليه الخطأ. ولا يصح أن نسأل: هل الله معصوم، أو غير معصوم من الخطأ؟ وعقيدة المسلمين هي: أن الله لا يفعل إلا الصلاح أو الأصلح، وكل قوله وفعله حكمة. لا يُسأل عما يفعل. {وَلَهُ الْكِبْرِيَاء فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} (الجاثية:٣٧).

إن أكبر الهفوات عندي: أن يحسب المرءُ أنه بريئ من الهفوات.

[أخطاء نبي الله داود في الكتاب المقدس]:

ما بال الناس لا يذكرون نبي الله داود عليه السلام[1]؟

ألم يرتكب داود أفظعَ الجرائم، وأشنع الآثام[2]؟!

ألا ما أهونَ أمرَ الذنوب، وأصغر خطر الأغلاط- الجزئيات والقشور- إذا كان لُبابها كريمًا، وسرها حرًا شريفًا، وكان في التوبة النصوح، والندم الصادق، ووخز الضمير، ولذع الذاكرة، أكبر مكفر للسيئات، ومطهِّر لأردان[3] الروح، من أدران[4] الشوائب!

أليست التوبة أكرمَ أعمال المرء قاطبة، وأقدسَ أفعاله؟!

إنما ألأمُ الذنب، هو- كما قلتُ: حسبان المرء أنه بريءٌ من كل ذنب.

---

[1] إن النبي داود، هو نبيٌ بارز جدًا في الكتاب المقدس. واسمه يُذكَر فيه أكثر من ألف مرة.

[2] هذا الكلام يصدم عقيدة كل مسلم، فداود عليه السلام في العقيدة الإسلامية، نبي كريم من أنبياء الله، منزه عن ارتكاب كل خطيئة وفحش، ذكره الله في القرآن بكثير من التوقير. ومن ذلك قوله: {وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ} (البقرة:٢٥١). وقوله: {وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا} (الإسراء:٥٥). وقوله: {فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ} (الأنبياء:٧٩). وقوله: {وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ} (النمل:١٥). وقوله: {وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ} (سبأ:١٠). وقوله: {اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ} (ص:١٧).

[3] أردان الروح: أطواؤها. والرُّدْنُ: أصْلُ الكُمِّ. وقيل: هو الكمُّ كله. والجمع: أرْدَانٌ (لسان العرب ١٧٧/١٣. القاموس المحيط، مج١، ص١٥٤٨).

[4] أدران: أوساخ، ودنس (مختار الصحاح، ص٢١٨).

وكلُّ نفس هذا شأنها، فهي في نظري مطلقة[1] من الوفاء والمروءة. بعيدة عن التقى والبر والحق. أو هي ميتة. أو إن تشأ فقل: هي نقية نقاء الرمل الجاف الميت!

وإني أحسَبُ أن سيرة داود وتاريخه، كما هو مدوَّن في مزاميره[2]، لأصدق آية على ارتقاء المرء في معارج المكرمات، وعلى حرب العقل والهوى، حربًا طالما ينهزم فيها العقل هزيمة تُضعْضعُ جانبَه، وتتركه لقيً مشفيًا على الانقراض. ولكنها حرب بغير نهاية، مشفوعة أبدًا بالبكاء والتوبة، واستنهاض العزم الصادق، الذي لا يبرح يتجدد بعد كل هزيمة.

يا ويل النفس الإنسانية!

ما أشد خطبها، بين ضعفها، وقوة شهواتها!

أو ليستْ حياة الإنسان في هذه الدنيا سلسلةَ عثرات؟!

وهل في استطاعة المرء خلاف ذلك؟!

---

[1] مطلقة: أي منفكة.

[2] مزامير داود في جملتها تقديس لله، ودعاء ورجاء، مِن ذلك: "أيها الرّبِ سيدُّنا، ما أمجد اسمك في كلِّ الأرضِ! .. إذ أرى سماواتك عمل أصابعك القمرَ والنّجوم التي كونتها. فمن الإنسان حتى تذكره، وابن آدم حتى تفتقده، وتنقصه قليلا عن الملائكةِ، وبمجدٍ وبهاءٍ تكلّلهُ؟ .. أيها الرب سيدنا، ما أمجدَ اسمك في كلِّ الأرض!" (مزمور ٨: ١، ٣-٩،٥). "سراج لرجلي كلامُك، ونورٌ لسبلي. خبأت كلامك في قلبي، لكيلا أخطئَ إليك!" (مزمور ١١٩: ١٠٥، ١١). "ناموس الرب كاملٌ، يردُّ النَّفس. شهادات الرب صادقة، تُصَيّرُ الجاهلَ حكيماً. وصايا الرب مستقيمةٌ، تُفرِّحُ القلبَ. أمرُ الرب طاهرٌ، ينير العينين. خوفُ الرب نقيٌّ، ثابت إلى الأبد. أحكام الرب حقٌ، عادلةٌ كلها. أشهى من الذهب والإبريز الكثير، وأحلى من العسل وقطر الشّهادِ. أيضا عبدك يُحذَّرُ بها، وفي حفظِها ثوابٌ عظيم" (مزمور ١٩: ٧-١١). "الرب راعيَّ فلا يعوزني شيءٌ. في مراعٍ خضرٍ يُربضني. إلى مياه الراحةِ يوردُني. يردُّ نفسي. يهديني إلى سُبُل البر من أجل اسْمه. أيضًا إذا سرت في وادي ظلِّ الموتَ، لا أخاف شرا، لأنك أنت معي. عصاك وعكازك هما يعزيانني. ترتب قدامي مائدة تجاهَ مضايقيَّ. مسحت بالدهنِ رأسي، كأسي ريا. إنما خيرٌ ورحمةٌ يتبعانني كل أيام حياتي، وأسكن في بيت الرَّبِّ إلى مدى الأيام" (مزمور ٢٣).

وهل يُطيق في ظلمات هذه الحياة إلا الاعتساف والتخبط، فما ينهض من عثرة إلا لأخرى؟ وبين هذه وتلك: نحيب وعبرات، وشهيق وزفرات.

وإنما الأمر الهام هو: أيظفَرُ على هواه بعد كل هذه المجاهدات.

وإنا لنصفح عن كثير من الجزئيات ما دام اللباب حقًا، والصميم صحيحًا. وما كانت الجزئيات وحدها لتعرفنا حقيقة إنسان[1].

[1] ما كان أغنى كارليل عن كل هذا الاعتذار عن أنبياء الله- عن ذنوب لم يقترفوها، وآثام لم يقربوها! وإنما هي من تشنيع أعداء الله ورسله. يقول الله سبحانه: {مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ} (البقرة:٩٨).

٣. [العرب وجزيرة العرب]

كانت عرب الجاهلية أمة كريمة، تسكن بلادًا كريمة، وكأنما خلق الله البلاد وأهلها على تمام وفاق. فكان ثمة شبه قريب بين وعورة جبالها، ووعورة أخلاقهم. وبين جفاء منظرها، وجفاء طباعهم. وكان يُلطف من قسوة قلوبهم مزاجٌ من اللين والدماثة[١]. كما كان يبسط من عبوس وجوه البلاد، رياض خضراء، وقيعان[٢] ذات أَمْوَاهٌ [٣] وأكلاء[٤].

وكان الأعرابي صامتًا، لا يتكلم إلا فيما يَعْنِيه؛ إذ كان يسكن أرضًا قفرًا، يبابًا[٥] خرساء. تخالُها بَحرًا من الرمل، يصطلي جمرة النهار طوله، ويكافح بِحَرِ وجههِ نفحاتِ القرِّ [٦] ليلَهُ.

رأت رجلا أما إذا الشمس عارضتْ فيضحى، وأما بالعشي فيخصر

ولا أحسَب أناسًا شأنهم الانفراد وسط البيْد[٧] والقفار، يحادثون ظواهر الطبيعة، ويناجون أسرارها، إلا أن يكونون أذكياء القلوب، حِداد الخواطر،

---

[١] الدماثة: سُهولةُ الخُلُق (لسان العرب ١٤٩/٢).
[٢] قِيعَانٌ: جمع قَاعٍ، وهو المستوي من الأرض (مختار الصحاح، ص٥٦٠).
[٣] أَمْوَاهٌ: جمع ماء (المصباح المنير ٥٨٦/٢).
[٤] أكلاء: جمع كلأ، وهو العشب، رطبًا كان، أو يابسًا (المصباح المنير ٥٤٠/٢).
[٥] يبابًا: أَرْضٌ يَبابٌ، أي خرابٌ، واليَبابُ عند العرب الذي ليس فيه أحد (لسان العرب ٨٠٦/١).
[٦] القُرُّ: البَرْدُ، ويُخَصُّ بالشتاءِ (القاموس المحيط، مج١، ص٩٢).
[٧] البيد: جمع بيداء. وهي الصحراء.

خِفاف الحركة، ثاقبي النظر.

وإذا صَحَّ أن الفرس هم فرنسيو المشرق، فالعرب- لا شك- طليانه[1].

والحق أقول: لقد كان أولئك العرب قومًا أقوياء النفوس. كأن أخلاقهم سيول دفاقة، لها من شدة حزْمهم، وقوة إرادتهم- أحصن سور، وأمنع حاجز.

وهذه- وأبيكم- أمُّ الفضائل، وذروة الشرف الباذخ.

وقد كان أحدهم يُضَيِّفُه ألدُّ أعدائه، فيكرم مثواه، وينحرُ له. فإذا أزمع[2] الرحيل، خلع عليه[3]، وحمَلَه، وشيَّعه[4].

ثم هو- بعد كل ذلك- لا يُحْجِمُ عن أن يقاتله متى عادت به إليه

---

[1] من صفات الفرنسيين الظرف واللين والسهولة. وكان من صفات الإيطاليين الغيرة والأنفة والشدة.

[2] أزمع: أزْمَعَ على الأمر ثبت على عزمه (مختار الصحاح،ص٢٨٠).

[3] خلع عليه: أي أهداه ثيابًا.

[4] لقد صار الكرم عند كثير من العرب طبعًا وسجية؛ إذ مَلك عليهم نفوسهم، حتى أن حاتم الطائي يوصي زوجته إذا صنعت له الطعام، أن تطلب له ضيفا؛ ليشاركه فيه. فهو لا يريد أن يأكل وحده؛ مخافة أن يتحدث الناس عنه بالبخل بعد موته، يقول:

أيــا ابنة عبد الله وابنةَ مالك ... ويا ابنةَ ذي البردين والفرس الورد
إذا ما صنعتِ الزاد فالتمسي له ... أكيلا؛ فإني لست آكله وحدي
أخاً طارقاً أو جـارَ بيت فإنني ... أخاف مذماتِ الأحاديث من بعدي
وإني لعبد الضيف مادام ثاويـاً ... وما فيَّ إلا تلك من شيمةِ العبد

وقد بالغ العرب في الحفاوة بالضيف، والتعهد له، وتفننوا في إكرامه، وتلمُّس الأسباب التي تدخل على نفسه السرور. ومن ذلك بسط الوجه له ومضاحكته والترحيب به ساعة قدومه حتى يأنس وينزل وهو مطمئن. ومن مظاهر كرمهم العجيبة: هداية الضيوف ليلاً بالنار التي يوقدونها لإنضاج الطعام، أو للاستدفاء، وكانوا يوقدونها على المرتفعات لتكون أوضح. يقول حاتم الطائي لغلامه في ليلة باردة الريح:

أوقدْ فإن الليلَ ليلُ قُرُّ ... والريح- يا غلام- ريح صِرُّ
إنْ جلبتْ ضيفاً فأنت حرُّ

الفرص.

وكان العربي أغلب وقته صامتا. فإذا قال أفصح.

ويُزعم أن العرب من عنصر اليهود[1]. والحقيقة أنهم شاركوا اليهود في مرارة الجد، وخالفوهم في حلاوة الشمائل، ورقة الظَرْف، وفي ألمعية القريحة[2]، وأريحية[3] القلب.

وكان لهم- قبل زمن محمد ﷺ منافسات في الشعر، يُجرونها بسوق عكاظ[4] في جنوب البلاد، حيث كانت تقام أسواق التجارة. فإذا انتهت الأسواق، تناشد الشعراء القصائد، ابتغاء جائزة تُجعل للأجود قريضًا، والأحكم قافية.

فكان الأعراب الجُفاة، ذوو الطباع الوحشية الوعرة، يرتاحون لنغمات القصيد، ويجدون لرناتها لذة عظيمة؛ فيتهافتون على المنشد كالفراش، ويتهالكون.

وأرى لهؤلاء العرب صفة من صفات الإسرائيليين، واضحة فيهم. وأحسَبها ثمرة الفضائل جميعًا، والحامد بحذافيرها، ألا وهي التدين[5]. فإنهم

[1] العرب المتعربة أو المستعربة: هم العرب من غير أبناء يعرب، مثل أبناء إسماعيل بن إبراهيم (بنو هاجر)، وتشتمل العدنانيين. أما اليهود، فهم أبناء يعقوب بن إسحق بن إبراهيم. فيشترك العرب واليهود في إبراهيم. وعلى هذا يكون خطأ القول: بأن العرب من عنصر اليهود.

[2] القريحة: أول ما يُستنبط من البئر. ومنه قولهم: لفلان قريحة جيدة، يُراد به استنباط العلم بجودة الطبع (مختار الصحاح، ص٥٦٠).

[3] أريحية: الأَرْيَحُ الواسعُ من كل شيء. والأَرْيَحِيُّ: الواسعُ الخُلُق، المنبسِطُ إلى المعروف (لسان العرب ٤٦٧/٢).

[4] سوق عكاظ: سوق من أسواق العرب في الجاهلية، وكانت قبائل العرب تجتمع بعكاظ في كل سنة، يتفاخرون فيها، ويحضرها شعراؤهم، يتناشدون ما أحدثوا من الشعر ثم يتفرقون (معجم البلدان ١٤٢/٤).

[5] هل بني إسرائيل شديدو التدين؟ يكفي أن نورد فيهم قول الحق ﷻ: {وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ

مذ كانوا، ما برحوا شديدي التمسك بدينهم، كيفما كان.

وكانوا يعبدون الكواكب، وكثيرًا من الكائنات الطبيعية، يرونها مظاهر للخالق، ودلائل على عظمته. فهذا وإن يكُ خطأ، فليس من جميع وجوهه؛ فإنَّ مصنوعات الله، ما برحت بوجه ما: رموزًا له، ودلائل عليه. ألسنا نعتدها مفخرة للشاعر، وفضيلة أن يكون يُدركُ ما بالكائنات من أسرار الجمال والجلال، أو "أسرار الجمال الشعري"، كما اصطلح الناس على تسميته[1]؟!

وقد كان لهؤلاء العرب عدة أنبياء، كلهم أستاذ قبيلته ومرشدها، حسبما يقضيه مبلغ علمه ورأيه[2].

ثم أليس لدينا من البراهين الساطعة، ما يثبت لنا أيَّ حكمة بليغة، ورأي مسدود! وأي تقوى وإخلاص، قد كان لهؤلاء البدو المفكرين!

وقد اتفق النقاد أن "سفر أيوب"[3] أحد أجزاء التوراة.

بَنِي إِسْرَائِيلَ لاَ تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْناً وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنكُمْ وَأَنتُم مِّعْرِضُونَ} (البقرة:٨٣). ويقول الله ﷻ: {لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلاً كُلَّمَا جَاءهُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقاً كَذَّبُواْ وَفَرِيقاً يَقْتُلُونَ} (المائدة:٧٠).

[1] هذا كلام فلسفة، بعيدة عن عقيدة الإسلام؛ فإن عبادة الظواهر الكونية والمخلوقات الفلكية، شرٌ لا خير فيه، ووثنية لا مهادنة معها. يقول الله تعالى: {وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ. فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَباً قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ. فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغاً قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ. فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفاً وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} (الأنعام:٧٥-٧٩).

[2] من أنبياء العرب: هود وأرسل إلى عاد، وصالح وأرسل إلى ثمود، وإبراهيم، ولوط، وإسماعيل، وشعيب.

[3] أيوب بن موص بن زارح بن العيص بن إسحاق بن إبراهيم عليه السلام. كان رجلا من الروم.

[الكتاب المقدس جاء من بلاد العرب]:

كتابنا المقدس قد كتب في بلاد العرب. وأراني في هذا الكتاب، فضلا عن كل ما كُتِبَ عنه: أنه من أشرف ما سطر يراع[1]، ودونت يد كاتب.

ولا يكاد المرء يصدق أنه من آثار العبرانيين؛ لما فيه من عمومية الأفكار، مع شرفها وسموها- عموميةً تخالف التعصب والتحيز[2]. وحسب الكتاب شرفًا أن يكون يضرب بعرق في كل نفس، ويَمُتُّ بصلة إلى كل قلب، ويكون كالبيت يفضي إليه منتهى السبل، وكالأرج[3] الضائع، تتنازعه جميع الأنوف.

والكتاب المذكور، هو أول ما جاءنا عن مسألة المسائل: حياة الإنسان، وفعل الله به في هذه الدار. وقد أتانا بذلك في أنصع بيان، وأشد إخلاص، وأحسن سهولة.

وإني لأتبين فيه العين البصيرة، والقلب النافذ الفهم، الجمّ الخشوع. فهو الحقّ من حيث جئته، والنظر الراسب في قرارة كل شيء، وصميم كل أمر: مادي، وروحاني.

ألا تذكرون ما جاء فيه من ذكر الفرَس:

---

[1] يراع: جمع يَراعة، وهي القلم (تاج العروس، مج١، ص٥٦٤٠).

[2] «التركيب الجيولوجي التراكمي»، عبارة نستخدمها لنصف عمق عدم التجانس، بل التناقض الداخلي الحاد الذي تتسم به اليهودية باعتبارها نسقًا دينيًا. التناقض بين المصدر اليهوي (الحلولي)، والمصدر الإلوهيمي (التوحيدي، أو شبه التوحيدي). والكتاب المقدس به نزعة توحيدية عالمية، وأخرى حلولية كمونية، تجعل اليهود هم شعب الله المقدس. وهذا ناتج عن أن هذا الكتاب صنفه كثيرون في أزمنة مختلفة (موسوعة اليهودية والصهيونية: د.عبد الوهاب المسيري).

[3] الأرَجُ والأَرِيجُ: توهج ريح الطيب. تقول: أرِج الطيب، أي فاح (مختار الصحاح، ص١٣).

"الله الذي أودع الرعد حنجرته... فهل ترى صهيله إلا قهقهة لرؤية الرماح؟!"[1].

هذا- والله- أجود الاستعارة! وما أحسب أن في عالم التشبيه كله ما يماثل ذلك، أو يقاربه.

ذلك، إلى ما في الكتاب المذكور من آيات الحزن الشريف، والتوكل الحسن الجميل. وما قرأتُ فيه قط، إلا حسبتُ قلبَ الإنسانية يترنم شجيً ووجدًا، ودمعَ الإنسانية يفيض حُرْقة وكمدًا.

فيالها من رقة في شدة، ورأفة في قوة!

وما أشبهها إلا بسحر الليلة الصائفة: رقةَ نسيم، في جلال مشهد عظيم.

وما أشبهها إلا بالكون، وكل ما فيه من أنجُمٍ وبحار، وليل ونهار.

وما أحسب أن في جميع التوراة شيئًا يدانيه فضلا وقيمة.

[الحجر الأسود والكعبة أشرف معابد العالم]:

والحجر الأسود كان من أعمِّ معبودات العرب. ولا يزال للآن بمكة، في البناء المسمى "الكعبة"[2].

---

[1] في سفر أيوب "١٩ :٣٩ هل أنت تعطي الفرس قوته، وتكسو عنقه عرفا؟ ٢٠ أتوثبه كجرادة. نفخ منخره مرعب. ٢١ يبحث في الوادي، وينفز ببأس. يخرج للقاء الأسلحة. ٢٢ يضحك على الخوف، ولا يرتاع، ولا يرجع عن السيف. ٢٣ عليه تصل السهام، وسنان الرمح، والمزراق. ٢٤ في وثبه ورجزه يلتهم الأرض، ولا يؤمن أنه صوت البوق. ٢٥ عند نفخ البوق يقول: هه! ومن بعيد يستروح القتال، صياح القواد والهتاف".

[2] لا يعبد المسلمون الحجر الأسود ولا الكعبة، ولكنهم يعظمونهما لتعظيم الله لهما. فالمسلم يُستحب له في الحج، أن يمس الحجر الأسود بيده، ويقبله إن استطاع بالتكبير والتهليل، وإلا فيُشيرُ تجاهه بيده إن لم يستطع الوصول إليه. ولله أن يُفضِّل الكعبة على سائر المساجد، وأن يُفضِّل الحجر الأسود على سائر الحجارة. كتفضيل الأنبياء على سائر

وقد ذكر المؤرخ الروماني "سيسلاس" الكعبة فقال: إنها كانت في مدته أشرفَ معابد العالم طرًّا، وأقدمها. وذلك قبل الميلاد بخمسين عامًا.

وقال المؤرخ "سلفستاردي ساسي": "إن الحجر الأسود ربما كان من رجوم السموات"[١].

فإذا صحَّ ذلك؛ فلابد أن إنسانًا قد بَصَرَ به ساقطًا من الجو!

والحجر موجود الآن إلى جانب البئر زمزم، والكعبة مبنية فوقهما.

والبئر- تعلمون- منظرٌ، حيثما كان، سارٌّ مُفرح، ينبجس[٢] الماء من الحجر الأصم، كالحياة من الموت. فما بالكم بها إذا كانت تفيض[٣]

الجن والإنس، وكتفضيل مكة على سائر البلاد، وكتفضيل المدينة بعد مكة على غيرها من البلاد، وكتفضيل المساجد على سائر البقاع، وكتفضيل شهر رمضان على سائر الشهور، وكتفضيل يوم الجمعة عرفة وعاشوراء والعشر على سائر الأيام، وكتفضيل ليلة القدر على سائر الليالي. فهذا فضل الاختصاص المجرد بلا عمل.

وعن عمر ﷺ: أنه جاء إلى الحجر الأسود فقبله فقال: "إني أعلم أنك حجرٌ لا تضر، ولا تنفع. ولولا أني رأيت النبي ﷺ يقبلك ما قبلتك" (أخرجه البخاري، كتاب الحج، باب ما ذكر في الحجر الأسود، حديث: ١٥٢٠. ومسلم، كتاب الحج، باب استحباب تقبيل الحجر الأسود في الطواف، حديث: ١٢٧٠).

[١] قال رسول الله ﷺ: "نزل الحجر الأسود من الجنة وهو أشد بياضًا من اللبن، فسودته خطايا بني آدم" (أخرجه الترمذي، باب ما جاء في فضل الحجر الأسود والركن والمقام، حديث: ٨٧٧. والنسائي، كتاب مناسك الحج، ذكر الحجر الأسود، حديث: ٢٩٣٥. وأحمد في المسند، من حديث ابن عباس، رقم: ٢٧٩٦). وصححه الألباني.

[٢] ينبجس: البَجْسُ انشقاق في قِرْبة، أو حجر، أو أَرض، يَنْبُعُ منه الماءُ. فإِن لم يَنْبُعْ فليس بانْبِجاس (لسان العرب ٢٤/٦).

[٣] يتم تَزويد المسجد النبوي الشريف من مياه زمزم بمتوسط (٦٦٤) ألف متر مكعب يوميًا. ويستهلك ضيوف الرحمن داخل المسجد الحرام أكثر من (١٦٤١) مترًا مكعبًا من ماء زمزم المبارك يوميًا، كما يستهلك الحجاج (١٠٦٥) مترًا مكعبًا يوميًا من مجمعات زمزم بالمنطقة المركزية والمحيطة بالمسجد. ويتم سقاية الحجيج بماء زمزم قبيل مغادرتهم الأراضي المقدسة بمخارج مكة المكرمة، حيث توزيع عبوة بلاستيكية سعة ٥,١ لتر على كل حاج. ويعتزم- هذا العام- توزيع أكثر من مليونين وثمانمئة ألف لتر مكعب من ماء زمزم في

بديمومة لا ظلَّ في صحصحانهــا[1] ولا ماء، لكن قورها[2] الدهر عومُ
ترى الآل[3] فيها يلطم الآل مائجًا وبارحها[4] المسمـــوم للوجه ألْطمُ
أظل إذا كافحتهـــــــ،،ا وكأنني بوهاجها دون اللثام ملثـــــــمُ

وقد اشتُق لها اسمها "زمزم"، من صوت تفجُّرِها وهديرها[5].

والعرب تزعم أنها انبجستْ تحت أقدام هاجر وإسماعيل؛ فيضًـا مـن الله وشفاء[6]. وقد قدَّسها العربُ والحجرَ الأسود، وشـادوا عليهمـا الكعبـة منـذ

عبوات سعة ثلاثمئة ملم، علاوة على توزيع مليون وأربعمئة وخمسين ألف لتر مكعـب في عبوات سعة عشرين لترًا.

[1] صحصـحانها: الصَّحْصَـحان مـا اسـتوى مـن الأَرض وجَـرُدَ. والجمـع الصَّحاصِـحُ. والصَّحْصَحُ: الأَرضُ الجَرْداءُ المستوية، ذاتُ حَصًـى صِـغار. وأرض صَحاصِـحُ وصَحْصَـحانٌ: ليس بها شيء، ولا شجر، ولا قرار للماء (لسان العرب ٢/٥٠٧).

[2] قورها: قوَّرَهُ تَقْويرًا، واقْتَوَرَهُ، واقْتَارَهُ- بمعنىً: أي قطعه مدورًا (مختار الصحاح، ص٥٦٠).

[3] الآل: الآلُ والسَّرابُ واحِدٌ (لسان العرب ٤٦٢/١).

[4] بارحها: البارح الريح الحارة في الصيف، وجمعها البوارح، وهي الريـاح الشـدائد، الـتي تحمل التراب في شدة الهَبَواتِ (لسان العرب ٤٠٨/٢).

[5] زَمْزَم: ماء زمزم، أي كثير متفجر (تاج العروس، مج١، ص٧٧٤٨).

[6] عن ابن عباس ﷺ قال: "لما كان بين إبراهيم وبين أهله مـا كـان، خـرج بإسماعيـل، وأم إسماعيل، ومعهم شنة، فيها ماء. فجعلت أمُّ إسماعيل تشرب من الشـنة؛ فيـدر لبنهـا علـى صبيها. حتى قدِم مكـة، فوضـعها تحـت دوحـة، ثـم رجـع إبـراهيم إلى أهلـه، فاتبعتـه أمُّ إسماعيل، حتى لما بلغوا كِداء، نادته من ورائـه: يـا إبـراهيم! إلى مـن تتركنـا؟ قـال: إلى الله. قالت: رضيتُ بالله. قال: فرجعتْ، فجعلتْ تشرب مِـن الشـنة، ويَـدِرُّ لبنهـا علـى صبيها. حتى لما فنيَ الماءُ قالت: لو ذهبتُ، فنظرت؛ لعلي أحِـسُّ أحـدًا! قـال: فـذهبتْ، فصـعدتْ الصفا، فنظرتْ، ونظرت: هل تُحِسُّ أحدًا، فلم تحس أحدًا. فلما بلغت الـوادي سـعت. ثـمَّ أتت المروة، ففعلت ذلك أشواطًا. ثم قالت: لو ذهبـتُ، فنظـرت مـا فعـل؟ تعـني الصـبي. فذهبت، فنظرت، فإذا هو على حاله كأنه، ينشغ للموت، فلم تُقرَّهـا نفسُـها، فقالـت: لـو ذهبتُ فنظرتِ، لعلي أحسُّ أحدًا! فذهبتْ، فصعدتْ الصفا، فنظرتْ، ونظرتْ، فلـم تُحـسَّ أحدًا، حتى أتمّتْ سبعًا. ثم قالت: لو ذهبتُ، فنظرتُ ما فعل؟ فـإذا هـي بصـوت، فقالـت: أغثْ إن كان عندك خيرًا فإذا جبريل. قال: فقال بعقبه هكـذا. وغمـز عقبـه علـى الأرض. قال: فانبثق الماء. فدهشتْ أمُّ إسماعيل، فجعلت تحفر ..." (أخرجه البخاري، كتاب الأنبيـاء،

آلاف من السنين[1].

وما أعجب هذه الكعبة، وأعجب شأنها! فهي في هذه الآونة قائمة على قواعدها، عليها الكسوة السوداء التي يرسلها السلطان كل عام[2]، يبلغ ارتفاعها سبعة وعشرين ذراعًا، حولها دائرة مزدوجة من العُمُد، وبها صفوف من المصابيح، وبها نقوش وزخارف عجيبة. وستوقد تلك المصابيح الليلة؛ لتشرف تحت النجوم المشرقة[3].

فنعمَ أثرُ الماضي هي، ونعم ميراث الغابر.

باب {يزفون} (الصافات:٩٤) النسلان في المشي، حديث: ٣١٨٥).

[1] إبراهيم ﷺ هو الذي بنى البيت. قال علي بن أبي طالب: "إن الله أوحى إلى إبراهيم أن ابن لي بيتا في الأرض... فبنى إبراهيم، فكان يبني هو ساقا كل يوم. حتى إذا بلغ مكان الحجر قال لابنه: ابغني حجرًا. فالتمس ثمة حجرًا، حتى أتاه به. فوجد الحجر الأسود قد رُكب. فقال له ابنه: من أين لك هذا؟ قال: جاء به مَن لمْ يتكلْ على بنائك. جاء به جبريل ﷺ من السماء، فأتمه" (أخرجه الحاكم في المستدرك، كتاب التفسير، باب تفسير سورة آل عمران، حديث: ٣١٥٤). وصححه الذهبي.

[2] كسوة الكعبة: حين انتقلت السيادة على الحجاز إلى العثمانيين، حازوا رعاية الحرمين الشريفين بمكة المكرمة والمدينة المنورة، وصار السلطان العثماني يلقب بخادم الحرمين الشريفين. وعلى الرغم من السيادة العثمانية على كافة الأمصار، إلا أن مصر- بصفتها ولاية عثمانية- ظلتْ تتولى عمارة المسجد الحرام، بالأموال، ومواد البناء، والمهندسين والعمال المصريين. وكانت كسوة الكعبة تُصنع في مصر، وتُحمل إلى هناك في موكب مهيب.

[3] أمر الله سبحانه إبراهيم وإسماعيل ببناء الكعبة، ورفع قواعدها، يقول الله تعالى: {وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} (البقرة:١٢٧). وبنيت بعدها عدة مَرات. آخرها حين تهدمت جَدرانها عقب أمطار غزيرة عام ١٠٣٩هـ، فأمر السلطان مراد الرابع بتجديدها على أيدي مهندسين مصريين عام ١٠٤٠هـ. ونتيجة للعمائر المختلفة التي تمت بالكعبة المشرفة في العهد العثماني، صار الحرم مستطيلا، أقرب إلى التربيع، وأصبحت المظلات- التي تحيط بالمطاف من ثلاثة أروقة- مقامة على صفوف من العقود والأعمدة الرخامية. ويُغطي كل تربيع قبة ضحلة، مقامة على مثلثات كردية. وتقوم الكعبة في وسط المسجد الحرام من الخارج في المتوسط ١٩٢ مترًا، وعرضه ١٣٢ مترًا. وكان بخارج المطاف ثلاث سقائف على أعمدة من الرخام.

هذه كعبة المسلمين. ومن أقاصي المشرق، إلى أخريات المغرب. من دلهي إلى مراكش، تتوجه أبصار العديد الجمهور من عباد الله المصلين شطرها، وتهفو قلوبهم نحوها خمس مرات هذا اليوم، وكل يوم.

نعم، لَهِيَ والله من أجَلِّ مراكز المعمورة، وأشرف أقطابها[1]!

[نشأة مكة وسط القفار]:

وإنما من شرف البئر زمزم، وقدسية الحجر الأسود. ومن حج القبائل إلى ذياك المكان، كان منشأ مدينة مكة.

ولقد كانت هذه المدينة وقتًا ما ذات بال وشأن، وإن كانت الآن فقدت كثيرًا من أهميتها[2]. وموقعها- من حيث هيَ مدينةً- سيءٌ جدًا؛ إذ هي واقعة في بطن من الأرض كثير الرمال، وسط هضاب قفرة، وتلال مُجْدِبة، على مسافة بعيدة من البحر. ثم يُمتارُ[3] لها جميع ذخائرها من جهات أخرى، حتى الخبز.

ولكن الذي اضطر إلى إيجاد هذه المدينة، هو أن كثيرًا من الحجيج كانوا

---

[1] يقصد الكعبة كل عام من أجل الحج أكثر من مليونين من المسلمين، يأتون من كل أقطار الأرض، ومن كل الجنسيات والدول، في مؤتمر سنوي مهيب، وعبادة وتبتل، تدل على عظمة الإسلام، وخلود رسالته، وعالميتها. ويُتوقع أن يصل عدد الحجاج هذا العام (٢٠٠٦م) إلى مليونين ونصف مليون حاج، منهم مليون ونصفٍ من مئة وستين دولة، من مختلف أنحاء العالم. يقول الله تعالى: {وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ} (البقرة:١٢٥).

[2] مضى على هذا الكلام أكثر من قرن ونصف قرن. وقد تغير الأمر، فصارت مكة مهوى أفئدة ملايين المسلمين حول العالم. ويقصدها ملايين منهم للحج والعمرة في كل عام.

[3] يمتار: يجلب الميرة، وهي الطعام.

يطلبون المأوى. ثم إن أماكن الحج ما زالت من قديم الزمان تستدعي التجارة. فأول يوم يلتقي فيه الحجيج، تلتقي فيه كذلك التجار والباعة.

والناس متى وجدوا أنفسهم مجتمعين لغرض من الأغراض، رأوا أنه لا بأس عليهم أن يقضوا كل ما يعرض لهم من المنافع، وإن لم يكن في الحسبان. لذلك صارت مكة سوق بلاد العرب بأجمعها، والمركز لكل ما كان من التجارة بين الهند، وبين الشام ومصر، بل وبين إيطاليا[١].

وقد بلغ سكانها في حين من الأحيان مائة ألف نسمة بين بائعين، ومشترين، وموردين لبضائع الشرق والغرب، وباعة للمأكولات والغلال[٢].

وكانت حكومتها ضربًا من الجمهورية الأرسطوقراسية[٣]، عليها صبغة دينية. وذلك أنهم كانوا ينتخبون لها، بطريقة غير منظمة، عشرة رجال من قبيلة عظمى، فيكون هؤلاء حُكام مكة، وحُرَّاس الكعبة. وكانت هذه الحكومة لقريش في عهد محمد. وأسرة محمد من قبيلة قريش.

---

[١] يقول الله تعالى: {وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ} (الحج:٢٧-٢٨).

[٢] بلغ عدد سكان مكة نحو (٨٥٠) ألف نسمة حسب تعداد عام (١٩٩١م). وهي بذلك تعد ثالثة المدن السعودية، من حيث عدد السكان. وفيما يتعلق بتوزيع السكان حسب الجنسية، فقد اتضح أن ٧٥٪ تقريبًا من سكان مكة المكرمة سعوديون، وأن ٢٥٪ غير سعوديين. ومن المتوقع أن يزداد عدد سكان مكة المكرمة من ١,٣ مليون عام (١٤٢٥هـ)، إلى ٢ مليون تقريبًا عام (١٤٤٠هـ)، وذلك بعيدًا عن أرقام الهجرة غير الشرعية التي قد تضيف نصف مليون لهذا الرقم أو يزيد. من المتوقع أن يزداد عدد المعتمرين القادمين من الخارج من ٢,٥ مليون عام (١٤٢٥)، إلى ١٠ مليون عام (١٤٤٠هـ)، إذا استمر معدل النمو السنوي عند ١٠٪ كما كان في الماضي. ومن المتوقع زيادة إجمالي عدد حجاج الداخل والخارج من ٢,٣ مليون إلى ٣,١ مليون خلال الفترة (١٤٢٥-١٤٤٠هـ) (قاعدة البيانات العمرانية للحكومة السعوديةmakkah-development.gov).

[٣] الأرسطوقراسية: طبقة النبلاء.

[أحوال العرب قبل بعثة محمد ﷺ]:

وكان سائر الأمة مبددًا في أنحاء تلك الرمال، قبائل تفصلها بين الواحدة والأخرى البيدُ والقفار[1]، وعلى كل قبيلة أمير، أو أمراء.

وربما كان الأمير راعيًا، أو ناقلَ أمتعة. ويكون في الغالب لصًا.

وكانت الحرب لا تخمد بين هذه القبائل. ولم يكُ يؤلف بينهم حلف علني، إلا التقاؤهم بالكعبة؛ حيث كان يجمعهم على اختلاف وثنياتهم مذهب واحد. وإلا رابطة الدم، واللغة.

وعلى هذه الطريقة، عاش العرب دهورًا طوالا خاملي الذكر، غامضي الشأن. أناسًا ذوي مناقب جليلة، وصفات كبيرة. ينتظرون- من حيث لا يشعرون- اليوم الذي يُشاد فيه بذكرهم، ويطير في الآفاق صيتهم، ويرتفع إلى عنان السماء صوتهم. وما ذلك ببعيد.

وكأنما كانت وثنياتهم قد وصلت إلى طور الاضمحلال، وآذنت بالسقوط. وقد حدثت بينهم دواعي اختلاط وفوران، وكان بلغهم على مدى القرون غوامض أنباء عن أكبر حادثة وقعت على وجه البسيطة. أعني حياة المسيح، ووفاته. وهي التي أحدثت انقلابًا هائلا في جميع سكان العالم. فلم تعدم هذه الأنباء تأثيرها من الفوران في أحشاء الأمة العربية.

[1] القفار: جمع القَفْرُ، وهو المفازة، لا نبات فيها، ولا ماء (مختار الصحاح، ص٥٦٠).

٤. [مولد محمد ﷺ ونشأته]

وكان بين هؤلاء العرب- التي تلك حالهم- أنْ وُلِدَ محمد ﷺ عام (٥٨٠) ميلادية، من أسرة هاشم، من قبيلة قريش.

[محمد ﷺ اليتيم في كفالة جده وعمه]:

وقد مات أبوه عقب مولده. ولمَّا بلغ عمره ستة أعوام توفيت أمُّه- وكان لها شهرة بالجمال والفضل والعقل، فقام عليه جدُّه، وهو شيخ قد ناهز المئة من عمره، وكان صالحًا بارًّا. وكان ابنه عبد الله أحبَّ أولاده إليه، فأبصرت عينه الهرمة في محمد صورة عبد الله؛ فأحبَّ اليتيمَ الصغيرَ بملء قلبه، وكان يقول: ينبغي أن يحسن القيام على ذلك الصبي الجميل، الذي قد فاقَ سائر الأسرة والقبيلة حسنا وفضلاً.

ولمَّا حضرت الشيخ الوفاة، والغلام لم يتجاوز العامين، عهِد به إلى أبي طالب، أكبر أعمامه، رأس الأسرة بعده، فربَّاه عمُّه. وكان رجلاً عاقلاً، كما يشهد بذلك كلُّ دليل ـ على أحسن نظام عربي.

[هل تعلم محمد ﷺ من بحيرا الراهب؟]:

ولمَّا شبَّ محمدٌ وترعْرَع، صار يَصحب عمَّه في أسفارٍ تجارية، وما أشبه.

وفي الثامنة عشرة من عمره، نراه فارسًا مقاتلا، يتبع عمه في الحروب[1].

غير أن أهم أسفاره، ربما كان ذاك الذي حدث قبل هذا التاريخ ببضع سنين: رحلة إلى مشارف الشام؛ إذ وجد الفتى نفسه هنالك في عالم جديد، إزاء مسألة أجنبية عظيمة الأهمية جدًا في نظره- أعني الديانة المسيحية.

وإني لست أدري: ماذا أقول عن ذلك الراهب سرجياس- "بحيرا"، الذي يُزعم أن أبا طالب ومحمدًا سكنا معه في دار؟! ولا ماذا عساه يتعلمه غلام في هذه السن الصغيرة من راهب ما[2]؟!

فإنَّ محمدًا لم يكن يتجاوز إذ ذاك الرابعة عشرة، ولم يكن يعرف إلا لغته[3]. ولاشك أن كثيرًا من أحوال الشام ومشاهداها، لم يك في نظره إلا

---

[1] لم يثبت أن محمدًا ﷺ شارك في حروب الجاهلية. ولعل الكاتب يقصد مجرد حمل السلاح؛ من أجل حماية القافلة التجارية؛ والدفاع عن النفس.

[2] عن أبي موسى قال: خرج أبو طالب إلى الشام، وخرج معه النبي ﷺ في أشياخ من قريش. فلمّا أشرفوا على الراهب، هبطوا فحلوا رحالهم، فخرج إليهم الراهب. وكانوا قبل ذلك يمرون به، فلا يخرج إليهم، ولا يلتفت. قال: فهم يحلون رحالهم، فجعل يتخللهم الراهب، حتى جاء فأخذ بيد رسول الله ﷺ فقال: هذا سيد العالمين، هذا رسول رب العالمين، يبعثه الله رحمة للعالمين. فقال له أشياخ من قريش: ما أعلمك؟ فقال: إنكم حين أشرفتم من العقبة، لم يبقَ شجرٌ، ولا حجر، إلا خرَّ ساجدًا، ولا يسجدان إلا لنبي، وإني أعرفه بخاتم النبوة، أسفل من غضروف كتفه، مثل التفاحة. ثم رجع، فصنعَ لهم طعامًا. فلمّا أتاهم به، وكان هو في رعيَّة الإبل، قال: أرسلوا إليه. فأقبل وعليه غمامة تظله، فلما دنا من القوم وجدهم قد سبقوه إلى فيء الشجرة، فلمّا جلس مال فيء الشجرة عليه. فقال: انظروا إلى فيء الشجرة، مال عليه" (أخرجه الترمذي، كتاب المناقب، باب ما جاء في بدء نبوة النبي ﷺ، حديث: ٣٦٢٠. والحاكم في المستدرك، كتاب آيات رسول الله ﷺ التي هي دلائل النبوة، حديث: ٤٢٢٩) وصححه الألباني.

[3] من الفرى: قول أعداء رسول الله ﷺ: إنه تعلم من بحيرا الراهب. وبه يحاولون أن يبرروا ما ورد في الكتاب والسنة من أخبار أهل الكتاب وأنبيائهم. ولكن الله سبحانه يرد عليهم ذلك، فيقول في القرآن: {وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَـٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ} (النحل:١٠٣). ويقول الله تعالى: {تِلْكَ مِنْ أَنبَاء

خليطًا مشوشًا من أشياء ينكرها، ولا يفهمها.

ولكن الغلام كان له عينان ثاقبتان، ولابد من أن يكون قد انطبع على لوح فؤاده أمورٌ وشئون، فأقامت في ثنايا ضميره، ولو غيْر مفهومة، ريثما يُنضجها له كَرُّ الغداة، ومَرُّ العشي، وتحُلها له يدُ الزمن يومًا ما، فتخرج منها آراءٌ وعقائد، ونظرات نافذات. فلعلَّ هذه الرحلة الشامية، كانت لمحمد أوائل خير كثير، وفوائد جمَّة.

[محمد ﷺ لم يُعلمه بشر]:

ثم لا ننسى شيئًا آخر، وهو أنه لم يتلقَ دروسًا على أستاذ قط، وكانت صناعة الخط حديثة العهد إذ ذاك في بلاد العرب. ويظهر لي أن الحقيقة: هي أن محمدًا لم يكن يعرف الخط والقراءة، وكل ما تعلمه هو عيشة الصحراء، وأحوالها، وكل ما وفق إلى معرفته هو ما أمكنه أن يشاهد بعينيه، ويتلقى بفؤاده من هذا الكون العديم النهاية[1].

الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلاَ قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَـذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ} (هود:٤٩). ويقول ﷻ: {ذَلِكَ مِنْ أَنبَاء الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُون أَقْلاَمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ} (آل عمران:٤٤). ويقول عزَّ شأنه: {ذَلِكَ مِنْ أَنبَاء الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُواْ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ} (يوسف:١٠٢). ويقول ﷻ: {وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ وَلَكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُوناً فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنتَ ثَاوِياً فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ} (القصص:٤٤-٤٥).

[1] يقول الله تعالى: {وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ} (العنكبوت:٤٨). ويقول سبحانه: {وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُوراً نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاء مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ} (الشورى:٥٢).

وعجيب- وايم الله- أميَّة محمد!

نعم، إنه لم يعرف من العالم، ولا من علومه إلا ما تيسر له أن يُبصره بنفسه، أو يصل إلى سمعه، في ظلمات صحراء العرب. ولم يضره، ولم يُزْرِ به[1] أنه لم يعرف علوم العالم، لا قديمها، ولا حديثها؛ لأنه كان بنفسه غنيًا عن كل ذلك.

ولم يقتبس محمد من نور أي إنسان آخر، ولم يغترف من مناهل غيره. ولم يكُ في جميع أشباهه من الأنبياء والعظماء- أولئك الذين أشبههم بالمصابيح الهادية في ظلمات الدهور- من كان بين محمد وبينه أدنى صلة، وإنما نشأ وعاش وحده في أحشاء الصحراء، ونما هنالك وحده بين الطبيعة، وبين أفكاره.

[1] لم يزرِ به: لم ينقص من قدره.

٥. [أخلاق محمد ﷺ الفاضلة التي درج عليها]

ولوحظ عليه منذ فتائه[١]، أنه كان شابًا مفكرًا، وقد سمَّاه رفقاؤه الأمين[٢].

رجل الصدق والوفاء. الصدق في أفعاله، وأقواله، وأفكاره.

وقد لحظوا أنه ما من كلمة تخرج من فِيْهِ، إلا وفيها حكمة بليغة[٣].

---

[١] فتائه: الفتاء. الشَّباب. والفتَى والفَتِيَّةُ: الشابُّ والشابَّةُ. والفعل: فَتُوَ يَفْتُو فَتاء (لسان العرب ١٥/١٤٥).

[٢] عن السائب بن عبد الله: أنه كان فيمن يبني الكعبة في الجاهلية. قال: ولي حجر، أنا نحته بيدي، أعبده من دون الله تبارك وتعالى. فأجيء باللبن الخاثر الذي أنفسه على نفسي، فأصبه عليه، فيجيء الكلب فيلحسه، ثم يشغر فيبول. فبنينا حتى بلغنا موضع الحجر، وما يرى الحجر أحدٌ، فإذا هو وسط حجارتنا، مثل رأس الرجل، يكاد يتراءى منه وجه الرجل. فقال بطن من قريش: نحن نضعه. وقال آخرون: نحن نضعه. فقالوا: اجعلوا بينكم حكمًا. قالوا: أول رجل يطلع من الفجِّ. فجاء النبي ﷺ فقالوا: أتاكم الأمين! فقالوا له. فوضعه في ثوب، ثم دعا بطونهم، فأخذوا بنواحيه معه، فوضعه هو ﷺ" (أخرجه أحمد في المسند، من حديث السائب بن عبد الله ﷺ، حديث: ١٥٥٤٣) .

وذُكِرَ محمدٌ في سفر الرؤيا (١٩:١١): "ثم رأيت السماء مفتوحة، وإذا فرس أبيض. والجالس عليه يُدعى أمينا وصادقا، وبالعدل يحكم ويحارب. ١٢ وعيناه كلهيب نار، وعلى رأسه تيجان كثيرة، وله اسم مكتوب: ليس أحد يعرفه إلا هو. ١٣ وهو متسربلٌ بثوب مغموس بدم. ويدعى اسمه: كلمة الله. ١٤ والأجناد الذين في السماء كانوا يتبعونه على خيل بيض، لابسين بزًا أبيضَ ونقيًا ١٥ ومن فمه يخرج سيف ماضٍ؛ لكي يضربَ به الأمم. وهوَ سيرعاهم بعصًا من حديد، وهو يدوس معصرة خمر سخط وغضب الله القادر على كل شيء. ١٦ وله على ثوبه، وعلى فخذه اسم مكتوب: ملك الملوك، ورب الأرباب".

[٣] الحكمة: العقل والعلم، والإصابة في القول والعمل. ويقول الله تعالى لزوجات الرسول ﷺ: {وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفاً خَبِيراً}

وإني لأعرف عنه أنه كان كثير الصمت[1]، يسكت حيث لا موجب للكلام. فإذا نطق، فما شئتَ من لُبٍّ وفضل، وإخلاص وحكمة. لا يتناول غرضًا فيتركه إلا وقد أنار شبهته، وكشف ظلمته، وأبان حجته، واستثار دفينته.

وهكذا يكون الكلام، وإلا فلا[2]!

وقد رأيناه طولَ حياته، رجلا راسخَ المبدأ، صارمَ العزم، بعيدَ الهَمِّ، كريمًا برًا، رءوفا تقيًّا، فاضلا حُرًّا. رجلا شديدَ الجدِّ مخلصًا[3].

(الأحزاب:٣٤). فيها أمر لهن بتبليغ الكتاب والسنة؛ فإن آيات الله هي القرآن، والحكمة هي سنة النبي ﷺ. ويقول النبي ﷺ: "فضِلتُ على الأنبياء بستٍ: أُعطيتُ جوامع الكلم، ونُصرتُ بالرعب، وأُحلت ليَ الغنائم، وجُعلتْ ليَ الأرضُ طَهورًا ومسجدًا، وأُرسلتُ إلى الخلق كافة، وخُتِمَ بيَ النبيون" (أخرجه البخاري، كتاب التيمم، حديث: ٣٢٨. ومسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، حديث: ٥٢٣).

[1] عن سِماك قال: قلتُ لجابر بن سمرة: أكنتَ تُجالس رسول الله ﷺ؟ قال: "نعم. فكانَ طويلَ الصمتِ، قليلَ الضحك. وكان أصحابه يذكرون عنده الشعرَ، وأشياءَ من أمورهم، فيضحكون. وربما تبَسَّم" (أخرجه أحمد في مسنده، من حديث جابر بن سمرة ﷺ، رقم: ٢٠٨٢٩). وحسّنه الأرنؤوط.

[2] نصوص كثيرة تظهر حكمة رسول الله العالية، منها: عن وابصة الأسدي قال: أتيت رسول الله ﷺ وأنا أريد أن لا أدع شيئا من البر والإثم إلا سألته عنه، وحوله عصابة من المسلمين يستفتونه، فجعلتُ أتخطاهم. فقالوا: إليك يا وابصة عن رسول الله ﷺ! فقلت: دعوني فأدنو منه؛ فإنه أحبُّ الناس إليَّ أن أدنوَ منه. قال: دَعُوا وابصة! اُدْنُ يا وابصة! مرتين، أو ثلاثا. قال: فدنوتُ منه، حتى قعدْتُ بين يديه. فقال: يا وابصة! أخبرُكَ، أو تسألني؟ قلت: لا. بل أخبرْني. فقال: جئتَ تسألني عن البر والإثم. فقال: نعم! فجمع أنامله، فجعل ينكتُ بهنَّ في صدري ويقول: يا وابصة! استفتِ قلبَك، واستفتِ نفسَك. ثلاث مرات. البرُّ ما اطمأنتْ إليه النفس. والإثم ما حاك في النفس، وترددَ في الصدر، وإن أفتاك الناسُ، وأفتَوْكَ" (أخرجه أحمد في المسند، من حديث وابصة بن معبد الأسدي، ﷺ، رقم: ١٨٠٣٥).

[3] عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: "أمرني ربي بتسع: خشية الله في السر والعلانية، وكلمة العدل في الغضب والرضى، والقصد في الفقر والغنى، وأن أصلَ مَنْ قطعني، وأُعطيَ مَن حرَمَني، وأعْفوَ عمَّن ظلمني. وأن يكونَ صمتي فكرًا، ونطقي ذكرًا، ونظري عبرة، وآمُرْ بالعرف. وقيل: بالمعروف" رواه رزين.

وهو مع ذلك: سهل الجانب، ليِّن العَرِيْكة[1]، جَمُّ البِشْر والطلاقة، حميد العشرة، حُلو الإيناس، بل ربما مازحَ وداعبَ.

وكان على العموم، تضيءُ وجهَه ابتسامةٌ مشرقة، من فؤاد صادق[2]. لأن من الناس من تكون ابتسامته كاذبة، ككذب أعماله وأحواله. هؤلاء لا يستطيعون أن يبتسموا.

وكان محمد جميلَ الوجه، وضي الطلعة، حسن القامة، زاهي اللون. له عينان سوداوان تتلألآن.

وإني لأحبُّ في جبينه ذلك العِرْق الذي كان ينتفخ، ويسودُّ في حال غضبه. وكان هذا العِرْق خصيصة في بني هاشم، ولكنه كان أبيَنَ في محمد، وأظهرَ[3].

---

[1] ليِّن العَرِيْكة: العَرِيكةُ الطبيعة وفلان لين العريكة أي سلس (مختار الصحاح، ص٤٦٧).

[2] عن هند بن أبي هالة التميمي قال: "كان رسول الله ﷺ متواصل الأحزان، دائم الفكرة، ليست له راحة. لا يتكلم في غير حاجة. طويل السكت، يفتتح الكلام ويختتمه بأشداقه، ويتكلم بجوامع الكلم. فصلٌ، لا فضول، ولا تقصيرٌ. دمث، ليس بالجافي، ولا المهين. يُعَظم النعمة وإنْ دقتْ، لا يذمُّ منها شيئا، لا يذم ذواقا، ولا يمدحه. ولا تغضبه الدنيا، ولا ما كان لها، فإذا تعوطي الحقُّ، لمْ يَعرفه أحد، ولم يقمْ لغضبه شيء، حتى ينتصر له. لا يغضب لنفسه، ولا ينتصر لها. إذا أشار، أشار بكفه كلها. وإذا تعجَّبَ قلبها. وإذا تحدَّث اتصلَ بها، فيضرب باطنَ راحته اليمنى باطنُ إبهامه اليسرى. وإذا غضب أعرض وأشاحَ. وإذا فرِحَ غضَّ طرْفه. جُلُّ ضحكه التبسم. ويفتر عن مثل حَبِّ الغمام" (أخرجه الطبراني في المعجم الكبير، حديث: ٤١٤. والبيهقي في الشعب، فصل في خَلق الرسول ﷺ وخُلقه، حديث: ١٤٣٠).

[3] عن هند بن أبي هالة التميمي، وكان وصَّافا، عن حلية النبي ﷺ، قال: "كان رسول الله ﷺ فخمًا مفخمًا، يتلألأ وجهه تلألؤ القمر ليلة البدر. أطول من المربوع، وأقصر من المشذب. عظيم الهامة، رَجِل الشعر. إن انفرقت عقيصته فرق، وإلا فلا يجاوز شعرُهُ شحمة أذنيه إذا هو وفرَهُ. أزهَرُ اللون، واسعُ الجبين، أزجُّ الحاجب، سوابغ في غير قرَن. بينهما عرقٌ يدِرُّهُ الغضب. أقنى العرنينَ، له نور يعلوه، يحسبه مَن لمْ يتأمله أشم" (أخرجه الطبراني في الكبير، حديث: ٤١٤. والبيهقي في الشعب، فصل في خَلق الرسول ﷺ وخُلقه، حديث:

نعم لقد كان هذا الرجلُ حادَّ الطبع، ناريَّ المزاج[1]، ولكنه كان عادلا، صادق النية[2].

كان ذكيَ اللب، شهْمَ الفؤاد، ممتلئًا نارًا ونورًا. رجلا عظيمًا بفطرته، لم تثقفه مدرسة، ولا هذَّبه مُعلم. وهو غني عن ذلك، كالشوكة استغنت عن التنقيح، فأدَّى عمله في الحياة وحده في أعماق الصحراء.

لوذعيًا[3] كأنما بين جنبيـ ـه مصابيح كل ليل بَهيم[4]

[قصة زواج محمد ﷺ من خديجة]:

وما ألذَّ، وما أوضحَ قصتَه مع خديجة!

١٤٣٠).

[1] لم يكن رسول الله يغضب إلا إذا انتهكت حرمات الله. عن عائشة- رضي الله عنها- قالت: "ما خُيِّر النبيُّ ﷺ بين أمرين، إلا اختار أيسرهما، ما لم يأثم. فإذا كان الإثم، كان أبعدهما منه. والله ما انتقم لنفسه في شيء يُؤتَى إليه قط، حتى تنتهك حرمات الله، فينتقم لله" (أخرجه البخاري، كتاب الحدود، باب إقامة الحدود والانتقام لحرمات الله، حديث: ٦٤٠٤. ومسلم، كتاب الفضائل، باب مباعدته ﷺ للآثام واختياره من المباح أسهله وانتقامه لله عند انتهاك حرماته ٢٣٢٧).

[2] كان من دعاء رسول الله ﷺ: "اللهم بعلمك الغيب، وقدرتك على الخلق. أحيني ما علمت الحياة خيرًا لي، وتوفني إذا كانت الوفاة خيرًا لي. اللهم إني أسألك خشيتك في الغيب والشهادة، وكلمة العدل والحق في الغضب والرضا. وأسألك القصْدَ في الفقر والغنا. وأسألك نعيمًا لا يَبيد، وقرة عين لا تنقطع. وأسألك الرضا بعد القضاء. وأسألك بَرْدَ العيش بعد الموت. وأسألك لذة النظر إلى وجهك. وأسألك الشوق إلى لقائك، في غير ضراء مُضرَّة، ولا فتنة مُضلة. اللهم زينا بزيَنة الإيمان، واجعلنا هداة مهتدين" (أخرجه ابن حبان في صحيحه، كتاب الصلاة، باب صفة الصلاة، حديث: ١٩٧١). وقال شعيب الأرنؤوط: إسناده قوي.

[3] لوذعيًا: التَّلَذُّعُ التوَقُّدُ. وتَلَذَّعَ الرجُل: توقَّدَ. واللَّوْذَعِيُّ الحدِيدُ الفُؤادِ واللسانِ الظريفُ كأنه يَلْذَعُ من ذَكائِه (لسان العرب ٣١٧/٨).

[4] ليلٌ بَهيم: لا ضَوء فيه إلى الصَّباح (لسان العرب ٥٦/١٢).

وكيف أنه كان أولا يسافر في تجارات لها إلى أسواق الشام! وكيف كان ينهجُ في ذلك أقومَ مناهج الحزم والأمانة! وكيف جعل شكرها له يزداد، وحبها ينموا!

ولما تزوجتْ منه كانت في الأربعين، وكان هو لم يتجاوز الخامسة والعشرين. وكان لا يزال عليها مِسْحة من مَلاحة.

ولقد عاش مع زوجه هذه على أتمِّ وِفاق وألفة، وصفاء وغبطة. يُخلص لها الحب وحدها.

ومما يُبطل دعوى القائلين بأن محمدًا لم يكن صادقًا في رسالته، بل كان مُلفِقًا مُزوِرًا: أنه قضى عُنفوانَ شبابه، وحرارةَ صباه، في تلك العيشة الهادئة المطمئنة. لم يحاول في أثنائها إحداث ضجَّة، ولا دوي، مما يكون وراءه ذِكر وشهرة، وجاهٌ وسُلطة. ولمْ يكُ إلا من بعد الأربعين أن تحدَّث برسالة سماوية. ومِن هذا التاريخ تبتدئ حوادثه وشواذه، حقيقة كانت أو مختلَقة!

وفي هذا التاريخ توفيتْ خديجة.

نعم، لقد كان حتى ذاك الوقت يقنع بالعيش الهادئ الساكن. وكان حَسْبه من الذكر والشهرة حسن آراء الجيران فيه، وجميل ظنونهم به، ولم يكن إلا- بعد أن ذهب الشباب، وأقبل المشيب- أن فار بصدره ذلك البركان الذي كان هاجعًا، وثار يريد أمرًا جليلاً، وشأنًا عظيمًا!

٦. [براءة محمد ﷺ من الطمع الدنيوي]

يزعم المتعصبون من النصارى والملحدون: أن محمدًا لم يكن يريد بقيامه، إلا الشهرة الشخصية، ومفاخر الجاه والسلطان.

كلا- وايْمُ الله!

[حكمة محمد ﷺ ورحمته]:

لقد كان في فؤاد ذلك الرجل الكبير، ابن القِفار والفلوات[1]، المتوقد المُقلتين، العظيم النفس، المملوء رحمة وخيرًا، وحنانا وبرًا، وحكمة وحِجَىً[2]، وإربة[3] ونُهى[4]- أفكارٌ غير الطمع الدنيوي، ونوايا خلاف طلب السلطة والجاه.

وكيف، وتلك نفس صامتة كبيرة! ورجلٌ مِن الذين لا يمكنهم إلا أن يكونوا مخلصين جادين؟!

[1] الفلوات: جمع فلاة. وهي الصحراء.

[2] حجى: العقل والفِطْنة. والجمع أَحْجاءٌ (لسان العرب ١٤/ ١٦٥).

[3] إربة: الإِرْب هو الدهاء، والبَصَرُ بالأُمورِ ويُضَمُّ فيقال: الأُرْبَةُ (تاج العروس، مج١، ص٢٧٨).

[4] نُهى: جمع نُهية. وهو العقل.

فبينما ترى آخرين يَرْضون بالاصطلاحات الكاذبة، ويسيرون طبقَ الاعتبارات الباطلة. إذ ترى محمدًا لمْ يرضَ أن يلتفع بمألوف الأكاذيب، ويتوشح بمتبع الأباطيل.

لقد كان منفردًا بنفسه العظيمة، وبحقائق الأمور والكائنات.

لقد كان سرُّ الوجودِ يسطع لعينيه- كما قلت- بأهواله ومخاوفه، وروانقه[1] ومباهره. ولم يكُ هنالك من الأباطيل ما يحجب ذلك عنه، فكأنه لسان حال ذلك السرّ، يناجيه: "هأنا ذا".

فمثل هذا الإخلاص، لا يخلو من معنىً إلهي مقدس، وما كلمة مثل هذا الرجل إلا صوتٌ خارجٌ من صميم قلب الطَبيعة. فَإذا تكلم، فكل الآذان- برغمها- صاغية، وكل القلوب واعية. وكل كلام- ما عدا ذلك- هباء، وكل قول جفاء.

[الأسئلة الحائرة في نفس محمد ﷺ]:

وما زال منذ الأعوام الطوال، منذ أيام رحله وأسفاره، يجول بخاطره آلاف من الأفكار:

ماذا أنا؟

وما ذلك الشيء عديم النهاية الذي أعيش فيه، والذي يسميه الناس كونًا؟

وما هي الحياة؟ وما هو الموت؟

وماذا أعتقد؟ وماذا أفعل؟

---

[1] روانق: جمع رَّوْنَق، وهو ماء السيف وصَفاؤه وحُسنه. ورَوْنَقُ الشباب: أَوّله، وماؤه. وكذلك رَوْنَقُ الضّحى. يقال: أَتيته رَوْنَقَ الضحى، أَي أَوَّلها (لسان العرب ١٠/١٢٦).

فهل أجابته عن ذلك صخور جبل حراء، أو شماريخ[1] طَوْدِ الطوْر[2]، أو تلك القِفار والفلوات؟!

كلا، ولا قبة الفلك الدوَّار، واختلاف الليل والنهار، ولا النجوم الزاهرة، والأنواء الماطرة.

لم يُجبه، لا هذا، ولا ذاك. وما للجواب عن ذلك إلا روح الرجل، وإلا ما أودع الله فيه من سره!

وهذا ما ينبغي لكل إنسان أن يسأل عنه نفسه، فقد أحسَّ ذلك الرجل القفريُّ، أن هذه أكبر المسائل، وأهم الأمور، وكل شيء عديم الأهمية في جانبها.

وكان إذا بحثَ عن الجواب في فِرَق اليونان الجدلية، أو في روايات اليهود المبهمة، أو نظام وثنية العرب الفاسد- لم يُجْدِه[3].

[رفض محمد ﷺ لأوضاع الجاهلية]:

وقد قلتُ: إن أهم خصائص البطل، وأول صفاته، وآخرها، هي أن ينظر من خلال الظواهر إلى البواطن. فأما العادات، والاستعمالات، والاعتبارات، والاصطلاحات، فينبذها، جيدة كانت، أو رديئة.

وكان يقول في نفسه: "هذه الأوثان التي يعبدها القوم، لابد من أن يكون وراءها ودونها شيء، ما هي إلا رمزٌ له، وإشارة إليه. وإلا فهي باطل

[1] شَمَارِيخُ: جمع شِمْرَاخُ، وهو ما يكون فيه الرُّطب، يتدلى منه. والشُّمْرُوخُ- وِزان عُصْفور- لغةٌ فيه (المصباح المنير ٣٢٢/١).

[2] طود الطور: هو جبل الطور بسيناء. ولا صلة لمحمد ﷺ به.

[3] يقول الله تعالى عن محمد ﷺ: {وَوَجَدَكَ ضَالاً فَهَدَى} (الضحى:٧).

وزور، وقطع من الخشب، لا تضير، ولا تنفع".

وما لهذا الرجل والأصنام!

وأنى تؤثر في مثله أوثانٌ ولو رُصِّعَتْ بالنجوم، لا بالذهب، ولو عبدها الجحاجح[1] من عدنان[2]، والأقيال من حمير[3]؟!

أي خير له في هذه، ولو عبدها الناس كافة؟!

إنه في واد، وهم في واد.

هم يعمهون في ضلالهم، وهو ماثل بين يدي الطبيعة يتأملها. قد سطعت لعينيه الحقيقة الهائلة. فإما أن يجيبها، وإلا فقد حبِط سعيُه، وكان من الخاسرين.

فلتجبْها يا محمد!

أجبْ! لابد من أن توجد الجواب.

[تكذيب محمد ﷺ عار وحمق]:

أيزعم الكاذبون أنه الطمع، وحب الدنيا، هو الذي أقام محمدًا، وأثاره؟!

---

[1] الجحاجح: الجَحْجَاحُ السيد. والجمع الجَحاجِحُ. وجمع الجحاجح: جَحاجِحَة (مختار الصحاح، ص١١٩).

[2] عدنان: أحد آباء العرب الأوائل. والعرب ستّ مراتب: "شَعْبٌ"، ثم "قَبِيلَةٌ"، ثم "عِمَارَةٌ"، ثم "بَطْنٌ"، ثم "فَخْذٌ"، ثم "فَصِيلَةٌ". فالشَّعْبُ هو النسب الأول، كعدنان. والقبيلة ما انقسم فيه أنساب الشعب. والعِمَارَة ما انقسم فيه أنساب القبيلة. والبَطْنُ ما انقسم فيه أنساب العمارة. والفَخْذُ ما انقسم فيه أنساب البطن. والفصِيلة ما انقسم فيه أنساب الفخذ. فخزيمة شعب، وكنانة قبيلة، وقريش عمارة، وقصي بطن، وهاشم فخذ، والعباس فصيلة (المصباح المنير ٣١٤/١).

[3] الأقيال من حمير: الواحد قَيْل، ومِقْوَل. والقَيْل الملك من مُلوك حِمْير باليمن (لسان العرب ٥٧٢/١١).

حُمْقٌ- وايْمُ الله- وسخافة، وهَوَس!

أيُّ فائدة لمثل هذا الرجل في جميع بلاد العرب، وفي تاج قيصر، وصولجان[1] كسرى، وجميع ما بالأرض من تيجان وصوالجة؟!

وأين تصير الممالك، والتيجان، والدول جميعها بعد حين من الدهر؟!

أفي مشيخة مكة، وقضيب مفضض الطرف، أو في ملك كسرى، وتاج ذهبي الذؤابة- مَنْجاة للمرء ومَظفرة؟

كلا!

إذن، فلنضربْ صفحًا عن مذهب الجائرين، القائل بأن محمدًا كاذب. ونعد مواقفهم عارًا وسُبَّة، وسخافة وحمقًا. فلنربأ بنفوسنا عنه، ولنترفعْ.

---

[1] صَوْلَجَان: العود المعوجُّ، فارسي معرَّب. والجمع صوالجة (لسان العرب ٢/٣١٠).

٧. [ابتداء بعثة محمد ﷺ]

وكان من شأن محمد أن يعتزل الناس شهرَ رمضان، فينقطع إلى السكون والوحدة، دأبَ العرب وعادتهم.

ونِعْمَتِ العادة!

ما أجلَّ، وأنفعَ! ولاسيما لرجل كمحمد. لقد كان يخلو إلى نفسه، فيناجي ضميره، صامتًا بين الجبال الصامتة، متفتحًا صدرُه لأصوات الكون الغامضة الخفية.

أجَلْ، حبذا تلك عادة، ونعمَتْ!

[خلوة محمد ﷺ في غار حراء]:

فلما كان في الأربعين من عمره، وقد خلا إلى نفسه في غار "حراء"، بجبل قرب مكة شهرَ رمضان؛ ليفكر في تلك المسائل الكبرى، إذا هو قد خرج إلى خديجة ذات يوم، وكان قد استصحبها ذلك العام، وأنزلها قريبًا من مكان خَلوته، فقال لها: إنه- بفضل الله- قد استجلى غامض السر، واستثار كامن الأمر، وأنه قد أنارت الشبهة، وانجلى الشك، وبَرِحَ الخفاء، وأن جميع هذه الأصنام محال، وليست إلا أخشابًا حقيرة، وأن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له. فهو الحق، وكل ما خلاه باطل، خلقنا ويرزقنا. وما

نحن وسائر الخلق والكائنات إلا ظل له، وستار يحجب النور الأبدي، والرونق السرمدي، الله أكبر، ولله الحمد[1].

[الإسلام دين كل فاضل شريف]:

ثم الإسلام، وهو أن نُسلم الأمر لله، ونُذعن له، ونسكن إليه، ونتوكل عليه. وأنَّ القوة، كل القوة هي في الاستنامة لحكمه، والخضوع لحكمته، والرضا بقسمته، أية كانت في هذه الدنيا، وفي الآخرة. ومهما يصبنا به الله،

---

[1] عن عائشة- أم المؤمنين، أنها قالت: "أول ما بُدِئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا، إلا جاءت مثل فلق الصبح. ثم حُبِبَ إليه الخلاءُ. وكان يخلو بغار حراء، فيتحنث فيه- وهو التعبد- الليالي ذوات العدد، قبل أن ينزع إلى أهله، ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة، فيتزود لمثلها. حتى جاءه الحقّ، وهو في غار حراء، فجاءه الملك فقال: {اقرأ}. قال: "ما أنا بقارئ". قال: "فأخذني، فغطني حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: {اقرأ}. قلت: "ما أنا بقارئ". فأخذني، فغطني الثانية، حتى بلغ منِّي الجهد. ثم أرسلني فقال: {اقرأ}. فقلت: "ما أنا بقارئ". فأخذني، فغطني الثالثة، ثم أرسلني فقال: {اقرأ باسم ربك الذي خلق. خلق الإنسان من علق. اقرأ وربك الأكرم} (العلق:١-٣). فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده، فدخل على خديجة بنت خويلد- رضي الله عنها- فقال: "زملوني، زملوني". فزملوه حتى ذهب عنه الروع. فقال لخديجة، وأخبرها الخبر: "لقد خشيت علي نفسي". فقالت خديجة: كلا! والله ما يخزيك الله أبدًا؛ إنك لتصِلُ الرحم، وتحمل الكلّ، وتُكسبُ المعدومُ، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحقّ.

فانطلقت به خديجة، حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العُزَّى، ابن عمّ خديجة، وكان امرءًا تنصر في الجاهلية، وكان يكتبُ الكتابَ العبراني، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخًا كبيرًا قد عمي. فقالت له خديجة: يا بن عَمّ! اسمع من ابن أخيك. فقال له ورقة: يا ابن أخي! ماذا ترى؟ فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رأى. فقال له ورقة: هذا الناموسُ الذي نزله الله على موسى. يا ليتني فيها جذع. ليتني أكون حيًا؛ إذ يُخرجك قومك. فقال رسول الله ﷺ: "أوَمُخْرجيَّ هُمْ؟". قال: نعم. لم يأت رجل قط بمثل ما جئتَ به إلا عودي. وإنْ يدركني يومُكَ، أنصرك نصرًا مؤزرًا (أخرجه البخاري، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدءُ الوحي إلى رسول الله ﷺ، حديث: ٣. ومسلم، كتاب الإيمان، باب بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ، حديث: ١٦٠).

ولو كان الموت الزؤام، فلنتلقه بوجه مبسوط، ونفس مغتبطة راضية، ونعلم أنه الخير، وأن لا خير إلا هو[1].

ولقد قال شاعر الألمان، وأعظم عظمائهم "جوته":

إذا كان ذلك هو الإسلام فـكلـنا إذن مسلـمون

نعم كل من كان فاضلا، شريف الخُلق، فهو مسلم.

[عمل الخير هو قانون الكون العادل]:

وقدمًا قيل: إن منتهى العقل والحكمة، ليس في مجرد الإذعان للضـرورة؛ فإن الضرورة تُخضع المرء برغم أنفه. ولا فضل فيما يأتيه الإنسان مكرهًا- بل في اليقين بأن الضرورة الأليمة المرة، هي خير ما يقع للإنسان، وأفضـل ما يناله.

وإن لله في ذلك حكمة، تلطف عن الأفهام، وتدق عن الأذهان. وإنه مـن الأفن[2] والسخف، أن يجعل الإنسان من دماغه الضئيل، ميزانًا لـذلك العـالم وأحواله. بل عليه أن يعتقد أن للكون قانونًا عادلا، وإنْ غاب عـن إدراكـه. وأن الخير هو أساس الكون، والصلاح روح الوجود، والنفع لباب الحياة.

نعم عليه أن يعرف ذلك، ويعتقده، ويتبعه في سكوت وتقوى.

أقول: وما زالت هذه الخطة المثلى، والمـذهب الأشـرف الأطهـر. ومـا زال الرجلُ مصيبًا وظافرًا، وحرًا وكريمًا، وسـائرًا علـى المـنهج الأقـوم، وسـالكًا

---

[1] يقول الله سبحانه: {فَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ} (الحج:٣٤-٣٥). ويقول- عزَّ اسمه: {قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ} (الأنعام:١٦٢-١٦٣).

[2] الأفن: هو ضعفُ العَقْلِ والرَّأْيِ (تاج العروس، مج١، ص١٢٥٦).

سبيل السعادة، ما دام معتصمًا بحبل الله، متمسكًا بقانون الطبيعة الأكبر الأمكن، غير مبال بالقوانين السطحية، والظواهر الوقتية، وحسابات الربح والخسارة.

نعم، هو ظافر إن اتبع ذلك القانون الكبير الجوهري- قطب رحى الكون، ومحور الدهر. وليس بظافر إن فعل غير ذلك.

وحقًا: إن أولَ وسيلة، تؤدي إلى اتباع هذا القانون، هي الاعتقاد بوجوده، ثم بأنه صالح. بل لا شيء غيره صالح!

وهذا- يا إخواني- هو روح الإسلام. وهذا هو أيضًا روح النصرانية. والإسلام- لو تفقهون- ضَرْبٌ من النصرانية[1].

والإسلام والنصرانية يأمراننا أن نتوكل على الله- قبل كل شيء، وأن نفطم النفسَ عن الشهوات، وننهي القلب عن الهوى، وأن لا نجمح في عنان المُنى، وأن نصبر على البث[2] والأسى، وأن نعرف أنَّا لا نعرف شيئًا[3]، وأن نرضى من الله كل ما قسَم، ونعدَّها يدًا بيضاء، ونعمة غراء، ونقول: الحمد لله على كل حال، وتبارك الله ذو الفضل والجلال، ونقول: "إنا بقسمة الله راضون، ولو كان ما قسَم لنا المنون"[4].

---

[1] الإسلام ليس ضربًا من النصرانية؛ لأننا لا يصحُّ أن نقول: إن الشمس تأخذ ضوءها من نور القمر. وسيعود الكاتب في هذا الرأي فيما بعد.

[2] البث: الحزن.

[3] يقول الله تعالى- في خمسة مواضع من القرآن الكريم: {وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ} (البقرة:٢١٦).

[4] يقول الله سبحانه: {وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوفْ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمَوَالِ وَالأنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُواْ إِنَّا لِلّهِ وَإِنَّـا إِلَيْهِ رَاجِعونَ أُولَـئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَـئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ} (البقرة:١٥٥-١٥٧).

٨. [الوحي وجبريل]

من فضائل الإسلام: تضحية النفس في سبيل الله. وهذا أشرف ما نزل من السماء على بني الأرض[١].

[نور الوحي يسطع في نفس محمد ﷺ]:

نعم هو نور الله، قد سطعَ في روح ذلك الرجل، فأنار ظلماتها. هو ضياءٌ باهر، كشف تلك الظلمات التي كانت تؤذن بالخسران والهلاك. وقد سمَّاه محمد ﷺ وحيًا و"جبريل"[٢].

وأنَّى لنا أن نستطيع أن يُحادِث له اسمًا[٣]؟

---

[١] يقول الله سبحانه: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ} (الحجرات:١٥).

[٢] لم يُسمِّه محمدٌ ﷺ، ولكن سمَّاه الله ﷻ، في كتابه المجيد. ومن ذلك قوله: {وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ} (الشعراء:١٩٢-١٩٥). ويقول الله أيضًا: {الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ} (يوسف:١-٣). ويقول الله ﷻ أيضًا: {وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ} (الشورى:٧).

[٣] إن الله ﷻ يُسميه، وقد سماه بكلامه المباشر، الذي نزل به أمين الوحي جبريل، المكلف بالبلاغ، من الله ﷻ، إلى نبيه محمد ﷺ، كما أرسلَ إلى جميع رسل الله. يقول الله سبحانه:

ألم يجيءْ في الإنجيل: أنَّ وحْي الله يهبنا الفهمَ والإدراك[1]؟

ولا شك أن العلم، والنفاذ إلى صميم الأمور، وجواهر الأشياء- لَسِرٌّ من أغمض الأسرار، لا يكاد المنطقيون يلمسون منه إلا قشوره. وقد قال نوفاليس[2]:

"أليس الإيمان هو المعجزة الحَقَّة، الدَّالة على الله؟".

[معنى كلمة محمد رسول الله ﷺ]:

إن شعور محمد- إذ اشتعلت روحه بلهيب هذه الحقيقة الساطعة، بأن الحقيقة المذكورة هي أهم ما يجب على الناس علمه- لمْ يكُ إلا أمرًا بديهيًا.

وكون الله قد أنعمَ عليه بكشفها له، ونجَّاه من الهلاك والظلمة. وكونه قد أصبح مضطرًا إلى إظهارها للعالم أجمع. فإنَّ هذا كله، هو معنى كلمة "محمد رسول الله". وهذا هو الصدق الجلي، والحق المبين[3].

{مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى} (النجم:٢-٥).

[1] الأمثال ٢:٦ "لأن الرب يعطي حكمة. مِن فمه المعرفة والفهم".

[2] نوفاليس: شاعر ألماني كبير. مات بمرض السل عام (١٨٠١م)، وعمره لا يتجاوز الثلاثين عامًا.

[3] يقول الله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً وَدَاعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُّنِيراً} (الأحزاب:٤٥-٤٦).

٩. [بدء محمد ﷺ بالدعوة إلى الله سبحانه وتعالى]

[إيمان زوجته خديجة بدعوته]:

ويُخيل إلينا، أن الصالحة خديجة، أصغت إليه في دهشة وشك، ثم آمنت وقالت: "إيْ وربي. إنه لحق!"[١].

ونتوهم أن محمدًا شكر لها ذلك الصنيع، ورأى في إيمانها بكلمته المخلصة، المقذوفة من بركان صدره، جميلا يفوق كل ما أسدتْ إليه من قبل؛ فإنه ليس أرْوَحُ لنفس المرء، ولا أثلجُ لحشاه[٢]، مِن أن يجدَ له شريكًا في اعتقاده. ولقد قال نوفاليس:

"ما رأيتُ شيئًا قطُّ آكَدُ ليقيني، وأوثق لاعتقادي، من انضمام إنسان آخر إليَّ في رأيي".

---

[١] جاء أن رسول الله بعد أن نزل عليه جبريل في غار حراء: "رجع رسول الله ﷺ ترجف بوادره، حتى دخل على خديجة فقال: "زَمِّلوني. زَمِّلوني". فزمَّلوه حتى ذهب عنه الروع. قال لخديجة: "أي خديجة! ما لي، لقد خشيتُ على نفسي". فأخبرَها الخبرَ، قالت خديجة: كلا، أبشر. فوَالله لا يُخزيك الله أبدًا! فوَالله إنك لتصلُ الرَّحِمَ، وتصدق الحديث، وتحمل الكلَّ، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق" (أخرجه البخاري، كتاب التفسير، باب تفسير سورة العلق، حديث: ٤٦٧٠. ومسلم، كتاب الإيمان، باب بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ، حديث: ١٦٠).

[٢] أثلجُ لحشاه: الحَشَا ما اضطمت عليه الضلوع. وأثلج لحشاه: اطمأنت إليه نفسه، وسكنت، وثبت فيها، ووَثِقتْ به (لسان العرب ٢/٢٢٢. مختار الصحاح، ص١٦٧).

نعم، إنه لصنيع أغرّ، ونعمة وفيرة.

ولذلك؛ ما انْفك محمدٌ يَذكُرُ خديجة حتى لقيَ ربه، حتى أن عائشة- زوجه الصغيرة المحبوبة، تلك التي اشتهرت بين المسلمين بجميع المناقب والفضائل طول حياتها[1]. هذه السيدة البارعة الجمال والفطنة، سألته ذات يوم:

"ألستُ الآن أفضل من خديجة؟ لقد كانت أرملة مُسِنَّة، قد ذهب جمالها. وأراك تحبني أكثر مما كنتَ تحبها"!

فأجاب محمد:

"كلا، والله! لست أفضل منها. وكيف وهي التي آمنت بي، والكل كافر ومنكر، ولم يكُ لي في هذا العالم إلا صديق واحد- وهذا الصديق هي"[2].

وآمنَ به مولاه زيد (بن حارثة) كذلك، وعلي (بن أبي طالب).

وهؤلاء الثلاثة، أول من آمن به.

[محمد ﷺ يلقى السخرية والاستهزاء من قومه]:

وجعل يذكر رسالته لهذا ولذاك، فما كان يصادف إلا جمودًا وسخرية، حتى أنه لم يؤمن به في خلال ثلاثة أعوام، إلا ثلاثة عشر رجلا. وذلك

[1] عائشة بنت أبى بكر الصديق: هي أم المؤمنين، أم عبد الله (ت ٥٧هـ)، أحاديثها في الصحيحين والسنن والمسانيد. أفقه النساء مطلقا، وأفضل زوجات النبي ﷺ، إلا خديجة- رضي الله عنهما.

[2] عن عائشة قالت: "كان النبي ﷺ إذا ذكر خديجة أثنى عليها، فأحسن الثناء. قالت: فغرتُ يومًا؛ فقلت: ما أكثر ما تذكرها، حمراء الشدق، قد أبدلك الله ﷻ بها خيرًا منها! قال: ما أبدلني الله ﷻ خيرًا منها! قد آمنتْ بي إذ كفر بي الناس، وصدقتني إذ كذبني الناس، وواستني بمالها إذ حرمني الناس، ورزقني الله ﷻ ولدها إذ حرمني أولاد النساء" (أخرجه أحمد، ٢٤٩٠٨). وصححه الأرنؤوط. وأصله في الصحيحين.

منتهى البطء، وبئس التشجيع!

في المعتاد، في مثل هذه الحال، وبعد هذه السنين الثلاث من النجاح المحدود، أن الاجتماعات تشجيع هذا الرجل؛ فآدَبَ[1] مأدبة لأربعين من قرابته، ثم قام بينهم خطيبًا، فذكر دعوته، وأنه يريد أن يُذيعها في سائر أنحاء الكون، وأنها المسألة الكبرى، بل المسألة الوحيدة، فأيهم يمد إليه يده، ويأخذ بناصره؟

وبينما القوم صامتون حيرةً ودهشة، وثب عليٌّ، وكان غلامًا في السادسة عشرة، وكان قد غاظه سكوت الجماعة، فصاح في أحَدِّ لهْجة: أنه ذاك النصير والظهير.

ولا يحتمل أن القوم كانوا منابذين محمدًا ومعادينه، وكلهم قرابته، وفيهم أبو طالب، عم محمد، وأبو علي. ولكن رؤية رجل كهْلٍ أميٍ يعينه غلام في السادسة عشرة، يقومان في وجه العالم بأجمعه، كانت مما يدعو إلى العجب المضحك.

فانفض القوم ضاحكين، ولكن الأمر لم يكُ بالمضحك. بل كان نهاية في الجِدِّ والخطر[2]!

[1] آدبَ: صنع مأدبة، وهي الطعام الضيفان.

[2] عن علي قال: لما نزلت {وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ} (الشعراء:٢١٤). دعاني رسول الله ﷺ فقال لي: "يا علي! إن الله أمرني أن أنذر عشيرتي الأقربين. قال: فضقتُ بذلك ذرعًا، وعرفت أني متى ما أنادهم بهذا الأمر، أرَ منهم ما أكرهُ؛ فصمتُّ، حتى جاء جبرائيل فقال: يا محمد! إنك إلا تفعل ما تؤمر به، يعذبك ربك. فاصنع لنا صاعًا من طعام، واجعل عليه رجل شاة، واملأ لنا عسًا من لبن، ثم اجمع لي بني عبد المطلب حتى أكلمهم، وأبلغهم ما أمرتُ به". ففعلت ما أمرني به، ثم دعوتهم له، وهم يومئذ أربعون رجلا، يزيدون رجلا، أو ينقصونه. فيهم أعمامه: أبو طالب، وحمزة، والعبَّاس، وأبو لهب. فلما اجتمعوا إليه، دعاني بالطعام الذي صنعتُ لهم، فجئت به. فلما وضعته، تناول رسول الله ﷺ حذية من اللحم، فشقها بأسنانه، ثم ألقاها في نواحي الصحفة قال: "خذوا! باسم الله". فأكل القوم حتى ما لهم بشيء حاجة، وما أرى إلا مواضع أيديهم. وايم الله الذي

أما عليٌّ، فلا يسعُنا إلا أن نحبه ونتعشقه؛ فإنه فتى شريف القدر، كبير النفس، يفيض وجدانه رحمة وبرًا، ويتلظى فؤاده نجدة وحماسة. وكان أشجعَ من ليثٍ، ولكنها شجاعة ممزوجة برقة ولطف، ورأفة وحنان، جدير بها فرسان الصليب في القرون الوسطى[1]، وقد قُتل بالكوفة غِيلةً. وإنما جنى ذلك على نفسه بشدة عدله، حتى حسب كل إنسان عادلا مثله. وقال قبل موته، حينما أومِرَ في قاتله:

نفس علي بيده! إن كان الرجل الواحد ليأكل ما قدمت لجميعهم، ثم قال: "اسق الناس". فجئتهم بذلك العس، فشربوا حتى رووا منه جميعًا .... ثمَّ تكلم رسول الله ﷺ فقال: "يا بني عبد المطلب! إني والله ما أعلم شابًا في العرب، جاء قومَه بأفضلَ مما جئتكم به. إني قد جئتكم بخير الدنيا والآخرة، وقد أمرني الله أن أدعوكم إليه. فأيُّكم يؤازرني على هذا الأمر، على أن يكون أخي، وكذا، وكذا؟" قال: فأحجمَ القومُ عنها جميعًا. وقلت- وإني لأحدثهم سنا، وأرمصهم عينا، وأعظمهم بطنا، وأخمشهم ساقا: أنا يا نبي الله! أكون وزيرَك. فأخذ برقبتي، ثم قال: "إن هذا أخي، وكذا، وكذا. فاسمعوا له، واطيعوه". قال: فقام القوم يضحكون، ويقولون لأبي طالب: قد أمرك أن تسمع لابنك وتطيع" (أخرجه الطبري في تفسيره، ٤٨٠/٩. والبزار في مسنده، من حديث علي بن أبي طالب، حديث: ٤٥٥).

[1] فرسان الصليب في العصور الوسطى: هم الذين قاموا بالحملات الصليبية على بلادنا، فأخرجوا حرائر الإسلام من بيوتهن، وذبحوهن بعد اغتصابهن، وبقروا بطون الحوامل، وحرقوا المسلمين أحياء بعد تقييدهم، وقطعوا رءوس المسلمين ورموها على الأرض، أو رفعوها على أسنة الرماح. ويذكر المؤرخون أن قائدهم "جودفروي" عندما هاجم بيت المقدس، قامت معركة دامية ما بينه وبين القوات المسلمة، كان الغلبة له؛ لشراسة فرسانه، ووحشيتهم. وعندما التجأ المسلمون إلى الحرم الإبراهيمي، قامت قوات ذلك الكافر، ولمدة خمسة أيام بقتل كل شيء حي وجدوه في تلك المنطقة، حتى وصل عدد الذين ذبحوا عشرة آلاف مسلم، وتحول لون حجارة أزقة القدس إلى الأحمر، من دمائهم الطاهرة. وهؤلاء الفرسان الممقوتون هم أسُّ البلاء في العالم، حتى أن تأثيرهم مستمر ليومنا هذا. فقد كانوا أوّل من تعصب للديانة المسيحية، واعتبروا المسلمين واليهود كفرة، ويجب القضاء عليهم، وسمُّوا أنفسهم بفرسان الصليب. وكانوا يرسمون صليبًا كبيرًا على صدورهم، وكان عددهم- في أوّل الأمر- لا يتجاوز أصابع اليدين، ولكنهم تكاثروا بسرعة، حتى أنهم قد جمعوا من المال، عن طريق القتل والتدمير، وعمليات الاختطاف والفدية، ما جعلهم أغنى أغنياء أوروبا، حتى جاء اليوم الذي تحدوا فيه أحد ملوك فرنسا؛ فقضى على معظمهم، واستولى على قلاعهم، وصادر ممتلكاتهم وأموالهم، وحرقهم أحياء. وإنهم موجودون إلى يومنا هذا، ويجب الحذر منهم.

"إنْ أعشْ، فالأمرُ إليَّ، وإنْ أمتْ، فالأمرُ لكم. فإنْ آثرتم أن تقتصوا، فضربة بضربة. وأن تعفوا أقرب إلى التقوى"[1]!

[1] علي بن أبي طالب: أول من صدَّق رسول الله ﷺ من بني هاشم. شهدَ المشاهد كلها معه. وكان قد اشتهر بالفروسية والشجاعة والإقدام. وهو رابع الخلفاء الراشدين. قتل سنة أربعين من الهجرة، وله ثلاث وستون سنة، ودفن بالكوفة. والذي ولي قتله عبد الرحمن بن ملجم المرادي. كان من الخوارج. جلس مقابل الطريق التي يخرج منها عليٌّ، فلما خرجَ، وجعل يُنهض الناس من النوم إلى صلاة الفجر، ويقول: الصلاة، الصلاةَ. وكان لا يخرج معه مَن يحرسه، فثار إليه بالسيف فضربه- قبَّحه الله. وحُمِل عليٌّ إلى منزله، وحُمِل إليه عبد الرحمن بن ملجم، فأوقفَ بين يديه وهو مكتوف- قبَّحه الله، فقال له: أي عدو الله! ألمْ أحسنْ إليك؟ قال: بلى! قال: فما حملك على هذا؟ قال شحذته أربعين صباحًا، وسألت الله أن يقتل به شرَّ خلقه. فقال له عليٌّ: لا أراك إلا مقتولا به. ولا أراك إلا من شر خلق الله. ثم قال: إن متُّ فاقتلوه، وإن عشتُ فأنا أعلمُ كيف أصنعُ به (البداية والنهاية ٣٢٨/٧. الطبقات الكبرى ١٢/٦).

١٠. [تحديات خطيرة في وجه الدعوة بمكة]

وكان في عمل محمد هذا إساءة- ولاشك- إلى قريش، حُرَّاس الكعبة، وخدمة الأصنام. وانضم إليه منهم رجلان أو ثلاثة، أولو بأس ونفوذ[١].

وسرى أمر محمد ببطء، ولكنه سريانٌ على كل حال. وكان عمله بالطبع سيء الوقع لدى كل إنسان، حيث جعلوا يقولون: مَن هذا الذي يزعم أنه أعقل منا جميعًا، والذي يُعنفنا، ويرمينا بالحمق، وعبادة الخشب[٢]؟!

[عم محمد يطلب منه ترك دعوته]:

وأشار عليه أبو طالب أن يكتم أمره، ويؤمن به وحده، وأن يكون له من نفسه ما يشغله عن العالم، وأن لا يُسخط القوم، ويثير غضبهم عليه؛ فيخطر بذلك حياته. فأجابه محمد:

---

[١] آمن أبو بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، وعبد الرحمن بن عوف، وعثمان بن عفان. وجميعهم من وجهاء قريش- ﷺ.

[٢] يقول الله تعالى عنهم: {بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوْا وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ وَعَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ أَأُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّن ذِكْرِي بَل لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ} (ص:٢-٨).

"والله لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في يساري، على أن أترك هذا الأمر، حتى يظهره الله، أو هلك فيه، ما تركته"[1].

كلا، فإنَّ في هذه الحقيقة التي جاء بها، لشيئًا من عنصر الطبيعة ذاتها، لا تفضله الشمس، ولا القمر، ولا أي مصنوعات الطبيعة. ولابد لتلك الحقيقة من أن تظهر برغم الشمس والقمر، ما دام قد أراد أن تظهر، وبرغم قريش جميعها، وبِكُرْهِ سائر الخلائق والكائنات.

نعم، لابد من أن تظهر، ولا يسعها إلا أن تظهر.

بذلك أجاب محمد.

ويقال: إنه "اغرورقت عيناه"[2].

اغرورقت عيناه!

لقد أحسَّ من عمِّه البرَّ والشفقة، وأدركَ وعورة الحال، وعَلِمَ أنه أمرٌ ليس بالهين اللين، ولكنما أمرٌ صعب المراس، مُرُّ المَذاق.

---

[1] أورده الألباني في السلسلة الضعيفة (٩٠٩). وقال: ليس له إسناد ثابت.

لكن ورد عن عقيل بن أبي طالب قال: "جاءت قريش إلى أبي طالب، فقالوا: إن ابن أخيك يؤذينا في نادينا وفي مسجدنا، فانْهَهُ عن أذانا. فقال: يا عقيل! ائتني بمحمد. فذهبت فأتيته به، فقال: يا ابن أخي! إن بني عمك يزعمون أنك تؤذيهم في ناديهم وفي مسجدهم، فانته عن ذلك. قال: فحلق رسول الله ﷺ بصره إلى السماء، فقال: أترون هذه الشمس؟ قالوا: نعم. قال: ما أنا بأقدرَ أن أدعَ لكمْ ذلك- على أن تستشعلوا لي منها شعلة! قال، فقال أبو طالب: ما كذبنا ابن أخي، فارجعوا" (أخرجه أبو يعلى في مسنده، من حديث عبد الله بن جعفر الهاشمي، حديث: ٦٨٠٤. والبزار في مسنده، من حديث عقيل بن أبي طالب، رقم: ٢١٧٠). وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة (٩٢).

[2] اغْرَوْرَقَت عيناه بالدُّموع: امتلأتا، ولم تَفِيضا (لسان العرب ١٠/٢٨٣).

[الهجرة إلى الحبشة]:

واستمر يؤدي الرسالة إلى كل من أصغى إليه، وينشر دينه بين الحجيج مدة إقامتهم بمكة، ويستميل الأتباع هنا وهنالك. وهو يلقى في أثناء كل ذلك منابذة ومناوأة، ومناصبة بالعداوة، ومجاهرة وشرًا، باديًا وكامنًا.

وكانت قرابته تحميه، وتدافع عنه. ولكنه عزم- هو وأتباعه- على الهجرة إلى الحبشة؛ فوقع خبرُ ذلك العزم من قريشٍ أسوأ موقع؛ وضاعف حنقهم عليه؛ فنصبوا له الأشراك[1]؛ وبثوا الحبائل؛ وأقسموا بالآلهة ليقتلنَّ محمدًا بأيديهم[2]!

[محمد ﷺ يفقد الناصر والمعينَ من أقاربه]:

وكانت خديجة قد توفيت، وتوفى أبو طالب.

وتعلمون- أصلحكم الله- أن محمدًا ليسِ بحاجة إلى نرثي له، ولحاله النكراء إذ ذاك، ومقامه الضنك، وموقفه الحَرِج. ولكن اعرفوا معي: أن حاله إذ ذاك، من الشدة والبلاء، كما لم يرَ إنسانٌ قط. فلقد كان يختبئ في الكهوف، ويفر متنكرًا إلى هذا المكان، والى ذاك. لا مأوى ولا مجير، ولا ناصر. تتهدده الحتوف، وتتوعده الهَلَكات، وتفغر[3] له أفواهها المنايا[4].

---

[1] الأشراك: جمع شرَك، وهو الفخ يُنْصَب للطَّيْرِ وغيرِها (لسان العرب ٤٦٤/١٤).

[2] عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: "شرى عليٌّ نفسه، ولبس ثوب النبي ﷺ، ثم نام مكانه. وكان المشركون يرمون رسول الله ﷺ. وقدِ كان رسول الله ﷺ ألبسه بردة. وكانت قريش تريد أن تقتل النبي ﷺ، فجعلوا يرمون عليًّا، و يرونه النبي ﷺ وقد لبس بردة" (أخرجه الحاكم في المستدرك، كتاب الهجرة، حديث: ٤٢٦٣). وصححه الذهبي.

[3] تفغر: تفتح.

[4] حين بُعث رسول الله ﷺ بالرسالة، آذاه قومُه، وهمُّوا به. فقامت بنو هاشم، وبنو المطلب- مسلمهم وكافرهم- دونه. وأبَوا أن يُسلموه. فلمَّا عرفت قريش أن لا سبيل إلى محمد

وكان الأمر يتوقف أحيانًا على أدنى صغيرة- كإجفال[1] فرس من أفراس أتباع محمد. فلو حدث ذلك لضاع كل شيء.

ولكن أمر محمد- ذلك الأمر العظيم- ما كان لينتهي على مثل تلك الحال.

[المؤامرة لقتل محمد ﷺ وهجرته إلى المدينة]:

فلما كان العام الثالث عشر من رسالته، وقد وجد أعداءه متألبين عليه[2] جميعًا، وكانوا أربعين رجلا، كلٌّ مِن قبيلةٍ، ائتمروا به ليقتلوه. وألفى المقام بمكة مستحيلا- هاجر إلى يثرب، حيث التف به الأنصار[3].

والبلدة تُسمَّى الآن المدينة، أي مدينة النبي، وهي من مكة على مئتي ميل، تقوم وسط صخور وقفار.

ﷺمعهم، اجتمعوا على أن يكتبوا- فيما بينهم- على بني هاشم وبني المطلب: أن لا يَنكحوهم، ولا يُنكحوا إليهم، ولا يبايعوهم، ولا يبتاعوا منهم. وعمد أبو طالب، فأدخلهم الشعب، شعب أبي طالب، في ناحية من مكة. وأقامت قريش على ذلك من أمرهم، في بني هاشم، وبني المطلب، سنتين أو ثلاثا، حتى جهدوا جهدًا شديدًا (أخرجه البيهقي في السنن، كتاب قسم الفيء والغنيمة، باب إعطاء الفيء على الديوان ومن يقع به البداية، حديث: ١٢٨٥٥).

[1] إجفال فرس: ندَّ، وشرد مسرعًا (المصباح المنير ١/١٠٣).

[2] متألبين: متجمعين (لسان العرب ١/٢١٥).

[3] أرسل القرشيون إلى بيتِ محمد ﷺ رجالا يحرسونه؛ لئلا يخرج مهاجرًا، ومتى عاينوه قتلوه. فأمرَ رسول الله ﷺ عليًّا فنام على فراشه، ثم خرج عليهم وهم جلوس، فجعلَ يَذر على رأس كل إنسان منهم ترابًا، ويقول: "شاهت الوجوه"، فلم يروه، حتى صار هو وأبو بكر الصديق إلى غار ثور. وفي الصحيح أن أبا بكر قال: "يا رسول الله! لو نظرَ أحدهم إلى موضع قدميه لأبصرَنا. فقال: يا أبا بكر! ما ظنك باثنين الله ثالثهما؟!" (أخرجه البخاري، كتاب التفسير، باب تفسير سورة {براءة} (التوبة)، حديث: ٤٣٨٦. ومسلم، كتاب فضائل الصحابة ﷺ، باب من فضائل أبي بكر الصديق ﷺ، حديث: ٢٣٨١).

ومن هذه الهجرة، يبتدئ التاريخ في المشرق[1].

والسنة الأولى من الهجرة توافق سنة (٦٢٢) ميلادية. وهي السنة الخامسة والخمسون من عمر محمد. فترون أنه كان قد أصبح إذ ذاك شيخًا كبيرًا.

وكان أصحابه يموتون واحدًا بعد واحد، ويُخلون أمامه مسلكًا وعرًا، وسبيلا قفرًا، وخطة نكراء موحشة. فإذا هو لم يجد من ذات نفسه مشجعًا ومحركًا، ويفجر بعزمه ينبوع أمل بين جنبيه. فهَيْهاتَ أن يجد بارقات الأمل فيما يُحْدِقُ به[2] من عوابس الخطوب، ويحيط به من كالحات المحن والملمات[3].

وهكذا شأن كل إنسان، في مثل هذه الأحوال.

---

[1] الهجرة النبوية الشريفة، كانت يوم الاثنين ٨ ربيع الأول، سنة (١) هجرية. المصادف ٢٠ سبتمبر سنة ٦٢٢ ميلادية.

[2] يُحْدِقُ به: يحيط به.

[3] المُلِمات: جمع مُلِمة، وهي كل مصيبة.

١١. [الجهاد في سبيل الله حماية للدعوة وردًا للطاعنين]

[دعوة محمد ﷺ كانت بالحكمة والموعظة الحسنة]:

وكانت نية محمد- حتى الآن- أن ينشر دينه بالحكمة والموعظة الحسنة فقط[١].

فلما وجد أن القوم الظالمين لم يكتفوا برفض رسالته السماوية، وعدم الإصغاء إلى صوت ضميره، وصيحة لُبِّه، حتى أرادوا أن يُسكتوه، فلا ينطق بالرسالة- عَزَمَ ابنُ الصحراء على أن يدافع عن نفسه: دفاعَ رجلٍ، ثم دفاعَ عربيٍ، ولسانُ حاله يقول: أما وقد أبَتْ قريشٌ إلا الحرب، فلينظروا أي فتيان هيجاء[٢] نحن!

وحقا رأَىَ (محمد)؛ فإن أولئك القوم أغلقوا آذانهم عن كلمة الحق، وشريعة الصدق، وأبوا إلا تماديًا في ضلالهم، يستبيحون الحريم، ويهتكون الحرمات، ويسلبون، وينهبون، ويَقتلون النفسَ التي حَرَّمَ الله قتلها، ويأتون كل إثم ومنكر.

وقد جاءهم محمد من طريق الرفق والأناة، فأبوا إلا عتوًا وطغيانا،

---

[١] يقول الله تعالى: {ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ} (النحل:١٢٥).

[٢] هيجاءَ: الهَيْجاءُ الحرب (لسان العرب ٢/٣٩٤).

فليُجْعَلِ الأمرُ إذنْ إلى الحُسام المُهَنَّد[1]، والوشيج[2] المقوَّم، وإلى كل مسرودة[3] حصداء[4]، وسابحة جرداء[5].

وكذلك قضى محمدٌ بقية عمره، وهي عشر سنين أخرى، في حرب وجهاد. لم يسترحْ غمضة عين، ولا مدر فواق[6].

وكانت النتيجة ما تعلمون؟

[رد على الزاعمين بأن الإسلام انتشر بالسيف]:

ولقد قيل كثيرًا في شأن نشر محمد دينه بالسيف. فإذا جعل الناس ذلك دليلاً على كذبه، فَشَدّ ما أخطئوا، وجاروا. فهم يقولون: ما كان الدين لينتشر، لولا السيف.

ولكن ما هو الذي أوجد السيف؟

هو قوة ذلك الدين، وأنه حقٌّ. والرأيُ الجديد أول ما ينشأ، يكون في رأس رجل واحد. فالذي يعتقده هو فرد، فردٌ ضد العالم أجمع. فإذا تناول هذا الفرد سيفا، وقام في وجه الدنيا، فقلما- والله- يضيع.

وأرى- على العموم- أن الحق ينشر نفسه بأية طريقة، حسبما تقتضيه

---

[1] الحسام المهند: السيف المطبوع من حديد الهند (مختار الصحاح، ص٧٠٥).

[2] الوَشِيجُ شجرٍ تصنع منه الرِّماح (لسان العرب ٢/٣٩٨).

[3] درع مَسْرُودَةٌ، ومُسَرَّدةٌ. قيل: سَرْدُها نسجها، وهو تداخل الحلق بعضها في بعض. وقيل: السَّرْدُ الثقب. والمَسْرُودَة المثقوبة.

[4] حصداء: درع حَصداء، صلبة شديدة محكمة (لسان العرب ٣/١٥١).

[5] سابحة جرداء: فرس أَجْرَدُ قصير الشعر. وقد جَرِدَ، وانْجَرَدَ. وذلك من علامات العِتْق والكَرَم (لسان العرب ٣/١١٥).

[6] مدر فواق: الفُوَاقُ- بضم الفاء وفتحها: ما بين الحلبتين من الوقت. يقال: ما أقام عنده إلا فواقا (مختار الصحاح، ص٥١٧). والمدر: إدرار اللبن.

الحال. أوَلَمْ تروا أن النصرانية كانت لا تأنف أن تستخدم السيف أحياناً؟ وحسبكم ما فعل شارلمان بقبائل السكسون[1].

وأنا لا أحفل: أكانَ انتشارُ الحق بالسيف، أم باللسان، أم بأية آلة أخرى. فلندع الحقائق تنشر سلطانها بالخطابة، أو بالصحافة، أو بالنار.

لندعها تكافح، وتجاهد بأيديها، وأرجلها، وأظفارها؛ فإنها لن تَهزم إلا ما كان يستحق أن يُهزم. وليس في طاقتها قط أن تفنى ما هو خير منها، بل ما هو أحط وأدنى؛ فإنها حربٌ لا حكم فيها إلا الطبيعة ذاتها[2].

ونِعْمَ الحُكْم، ما أعدلَ، وما أقسطَ، وما كان أعمق جذرًا في الحق، وأذهبَ أعْراقًا في الطبيعة. فذلك هو الذي ترونه- بعد الهرَج والمرَج، والضوضاء والجلبة- ناميًا زاكيًا وحده.

---

[1] شارلمان (٧٤٢- ٨١٤م): ملك الفرنجة (٧٦٨-٨١٤م). كان أحد أشهر القادة العسكريين في العصور الوسطى، احتل جزءًا كبيرًا من أوروبا الغربية، وأجبر طوائف السكسون التي كانت في جرمانيا على الدين المسيحي، بعد أن كانت وثنية. واستولى على ألمانيا، وإيطاليا، ووحدها في إمبراطورية واحدة عظيمة (٨٠٠-٨١٤). وبعث مرة أخرى الفكر السياسي والثقافي المسيحي في أوروبا، الذي كان قد اندثر بعد سقوط الإمبراطورية الرومانية الغربية في القرن الخامس الميلادي. وقد وضعت أنشطته حجر الأساس للحضارة الأوروبية المسيحية، التي ازدهرت في أواخر العصور الوسطى (٤٧٦-١٤٥٣م). عمل شارلمان دومًا على حماية الكنيسة، وتوسيع سيطرتها.

[2] يقول ابن القيم موضحًا هذه المسألة: "وقد أمرَ الله بمجادلة الكفار بعد دعوتهم؛ إقامة للحجة؛ وإزاحة للعذر؛ ليهلِك من هلك عن بينة؛ ويحي من حَيَّ عن بينة. والسيف إنما جاء مُنفذا للحُجَّة، مقومًا للمعاند، وحدًا للجاحد. قال تعالى: {لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ} (الحديد:٢٥). فدين الإسلام قام بالكتاب الهادي، ونفذه السيف الماضي

فما هو إلا الوحي أو حدٌّ مرهف   يقيم ضباه أخدعي كل مائل

فهذا شفاء الداء من كل عاقل   وهذا دواء الداء من كل جاهل"

(هداية الحيارى: ابن القيم، ص١٠).

[حقٌّ محضٌ لا شِيَةَ فيه]:

أقول: الطبيعة أعدلُ حَكَمٍ.

بلى، ما أعدلَ! وما أعقلَ! وما أرحمَ! وما أحلمَ!

إنك تأخذ حبوب القمح؛ لتجعلها في بطن الأرض. وربما كانت هذه الحبوب مخلوطة بقشور وتبن، وقمامة وتراب، وسائر أصناف الأقذاء. ولكن لا بأس عليك من ذلك. وألقِ الحبوب بجميع ما يخالطها من القذَى في جوف الأرض العادلة البارة؛ فإنها لا تعطيك إلا قمحًا خالصًا نقيًا.

فأمَّا القذى، فإنها تبلعه في سكون وتدفنه، ولا نذكر عنه كلمة. وما هي إلا بُرْهة، حتى ترى القمح زاكيًا، يهتز كأنه سبائك الذهب الإبريز، والأرض الكريمة قد طوتْ كشحًا[1] على الأقذاء، وأغضت. بل إنها حوَّلتها كذلك إلى أشياء نافعة. ولم تشكُ منها شجوًا، ولا نصبًا.

وهكذا الطبيعة في جميع شؤونها، فهي حق لا باطل، وهي عظيمة وعادلة، ورحيمة حنون.

وهي لا تشترط في الشيء إلا أن يكون صادق اللباب، حُرَّ الصميم. فإذا كان كذلك حمته وحرسته، أو كان غير ذلك لمْ تحمْهِ، ولمْ تحرسْهُ.

فترى لكل شيءٍ تحميه الطبيعة روحًا من الحق.

أليس شأن حبوب القمح هذه والطبيعة هو- وأسفاه- شأن كل حقيقة كبرى، جاءت إلى هذه الدنيا، أو تجئ فيما بعد؟!

أعني: أن الحقيقة مزيج من حق وباطل، نور في الظلام.

وتجيئنا الحقائق في أثواب من القضايا المنطقية، ونظريات علمية من

[1] كشحا: الكَشْحُ ما بين الخاصرة إلى الضِّلَعِ الخَلْف، وهو من لَدُن السرة إلى المَتْن (لسان العرب ٢/٥٧١).

الكائنات، لا يمكن أن تكون تامة صحيحة صائبة. ثم لابد من أن يجيء يوم، يظهر فيه نقصها وخطؤها وجوهرها؛ فتموت، وتذهب.

نعم يموت، ويذهب جسم كل حقيقة. ولكن الروح يبقى أبدًا، ويتخذ ثوبًا أطهر، وبدنًا أشرف. وما يزال يتنقل من الأثواب والأبدان، من حسن إلى أحسن، وجيد إلى أجود. سُنة الطبيعة التي لا تتبدل.

نعم إن جوهر الحقيقة الكريم حي لا يموت، وإنما النقطة الهامة، والأمر الوحيد، الذي يعرض في محكمة الطبيعة، ومجلس قضائها هو: هل هذا الروح حق، وصوت من أعماق الطبيعة؟

وليس بهام عند الطبيعة، ما نُسَمِّيه نقاء الشيء، أو عدم نقائه. وليس هو بالسؤال النهائي[1].

ليس الأمر الهام عند الطبيعة، حينما تقدم إليها أنت؛ لتصدر حكمها فيك، هو أفيك أقذار وأكدار، أم لا. وإنما هو أفيك جوهرُ حقٍ، وروحُ صدق، أم لا؟

أو بعبارة تشبيهية: ليس السؤال الهام عند الطبيعة، هو أفيك قشور، أو

---

[1] يختلف الأمر في الحقيقة الإلهية، عنها في الحقيقة الطبيعية والحقيقة البشرية. فالحقيقة الإلهية مطلقة وثابتة، ولا تقارن بغيرها؛ لأنها من عند الله العزيز الحكيم. وإنما يُدخل البشر على الدين ما ليس منه، تحريفا وتبديلا، فيرسل الله الرسل مجددين ما أبلاه الناس من الدين. يقول الله تعالى: {يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِن بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَـٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَن يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَـٰئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ} (المائدة:٤١). ويقول سبحانه عن اليهود: {فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ} (المائدة:١٣). أما القرآن فحفظه الله من التبديل والتحريف، يقول ﷻ: {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ} (الحجر:٩).

لا؟ بل: أفيك قمح؟

أيقولُ بعضُ الناس: إنه نقي؟

إني أقول له: "نعم نقي، نقي جدًا".

ولكنك قشر، ولكنك باطل، وأكذوبة، وزور، وثوب بلا روح، ومجرد اصطلاح وعادة. وما امتدَّ بينك، وبين سر الكون وقلب الوجود سبب ولا صلة.

والواقع: أنك لا نقي، ولا غير نقي. وإنما أنت لا شيء. والطبيعة لا تعرفك، وإنها منك براء.

١٢ . [حقيقة دعوة الإسلام]

[بين الإسلام والنصرانية]:

نحن سمّينا الإسلام "ضربًا من النصرانية". ولو نظرنا إلى ما كان من سرعته إلى القلوب، وشدة امتزاجه بالنفوس، واختلاطه بالدماء في العروق؛ لأيقنا أنه كان خيرًا من تلك النصرانية، التي كانت إذ ذاك بالشام واليونان وسائر تلك الأقطار والبلدان. تلك النصرانية، التي كانت تُصَدِّعُ الرأس بضوضائها الكاذبة، وتتركُ القلبَ ببطلانها قفرًا ميتًا[١]!

على أنه قد كان فيها عنصر من الحق، ولكنه ضئيلٌ جدًا، وبفضله فقط آمن الناس بها[٢].

---

[١] الإسلام دين الفطرة. واضح في مبادئه، سهل في تعاليمه، بعيد عن الغموض والأسرار والكهنوت. فيه نور الحق صراح، لا شائبة فيه. لم يختلط بأقوال الفلاسفة والمناطقة والنظار والنساك. يقول الله سبحانه: {وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ} (القمر:١٧). وعن النبي ﷺ قال: "إن الدين يسر، ولن يُشادَّ الدينَ أحدٌ إلاّ غلبَه؛ فسدِّدوا؛ وقاربوا؛ وأبشروا؛ واستعينوا بالغدْوة، والرَّوْحة، وشيءٍ من الدُّلجة" (أخرجه البخاري، كتاب الإيمان، باب الدين يسر، حديث: ٣٩).

[٢] بقيت الأخلاق في النصرانية، أما العقيدة والعبادة والشريعة فحرفت، واختلط فيها الحق بالباطل. وكمثال يبين شارل جينيبر: أن الأسطورة الشرقية القديمة، التي تدور حول فكرة إله متجسد، يموت ثم يبعث؛ ليسير بأتباعه نحو حياة الخلود، تسربت إلى ضمير المجتمعات المسيحية، أو على الأقل منها تلك المتأثرة بالفكر اليوناني، فلم يلبث عيسى أن تحول بها من مسيح يهودي وشخصية محلية، لا أثر فيها للتراث اليوناني، ولا يفهمها أهل اليونان، إلى عيسى المسيح، السيد والمنقذ، ابن الله وخليفته على الأرض، الذي يهتف باسمه سائر المؤمنين، وتنحني له الخليقة كلها إكبارًا وإجلالا (المسيحية نشأتها وتطورها: شارل جينيبر، ص٦٦-٦٧).

وحقًا، إنها كانت ضَرْبًا كاذبًا من النصرانية، كالدعي بين الأصلاء، ولكنها ضرب حي على كل حال، ذو حياة قلبية، وليست مجرد قضايا قفرة ميتة.

[التوحيد لب دعوة محمد ﷺ]:

ونظر محمد من وراء أصنام العرب الكاذبة، ومن وراء مذاهب اليونان واليهود، ورواياتهم، وبراهينهم، ومزاعمهم، وقضاياهم.

نظر ابن القفار والصحاري بقلبه البصير الصادق، وعينه المتوَّقدة الجلية، إلى لُباب الأمر وصميمه، فقال في نفسه: الوثنية باطل، وهذه الأصنام- التي تصقلونها بالزيت والدهن، فيقع عليه الذباب- أخشاب، لا تضر، ولا تنفع. وهي منكر فظيع، وكفر لو تعلمون. إنما الحق: أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له. خَلقنا، وبيده حياتكم وموتكم. هو أرأفُ بكمْ منكمْ. وما أصابكم من شيء، فهو خير لكم، لو كنتم تفقهون.

وإن دينًا آمن به أولئك العرب الوثنيون، وأمسكوه بقلوبهم النارية، لَجديرٌ أن يكون حقًا، وجدير أن يُصَدَّقَ به. وإن ما أودع هذا الدينُ من القواعد، هو الشيء الوحيد، الذي للإنسان أن يؤمن به.

وهذا الشيء هو روح جميع الأديان، روح تلبس أثوابًا مختلفة، وأثوابًا متعددة. وهي في الحقيقة شيء واحد[1].

وباتباع هذه الروح، يصبح الإنسان إمامًا كبيرًا لهذا المعبد الأكبر- الكون، جاريًا على قواعد الخالق، تابعًا لقوانينه، لا محاولا عبثًا أن يقاومها

---

[1] هي التوحيد، وعبادة الله وحد لا شريك له، وإخلاص الدين له. يقول الله سبحانه: {وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ} (البينة:٥).

ويدافعها[1].

[الإسلام هو الحق الذي قضى على الباطل]:

ولم أعرفْ قط تعريفا للواجب أحسن من هذا. والصواب- كل الصواب- في السير على هذا المنهاج في الدنيا. فإن الفلاح في ذلك:

جاء محمد، وشِيَع النصارى تقيم أسواق الجدال، وتتخابط بالحُجج الجائرة. وماذا أفاد ذلك؟ وماذا أثمر؟

أما إن الأهم، ليس صحة ترتيب القضايا المنطقية، وحسن إنتاجها. وإنما هو أنَّ خلق الله، وأبناء آدم، يعتقدون تلك الحقائق الكبرى.

لقد جاء الإسلام على تلك الملل الكاذبة، والنحل الباطلة، فابتلعها. وحُقَّ له أن يبتلعها؛ لأنه حقيقة خارجة من قلب الطبيعة. وما كاد يظهر الإسلام حتى احترقت فيه وثنياتُ العرب، وجدليات النصرانية، وكل ما لم يكن بحق؛ فإنه حطب ميت، أكلته نار الإسلام، فذهبَ. والنار لمْ تذهب.

---

[1] يقول الله سبحانه: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ} (الحج:١٨).

١٣. [عظمة القرآن وإعجازه]

أما القرآن، فإنَّ فرْط إعجاب المسلمين به، وقولهم بإعجازه، هو أكبر دليل على اختلاف الأذواق في الأمم المختلفة[١].

هذا وإن الترجمة تذهب بأكثر جمال الصنعة، وحسن الصياغة. ولذلك لا عجبَ إذا قلتُ: إن الأوروبي يجد في قراءة القرآن أكبر عناء، فهو يقرؤه كما يقرأ الجرائد، لا يزال يقطع في صفحاتها قفارًا من القول الممل المتعب، ويحمل على ذهنه هضابًا وجبالاً من الكلِم؛ لكي يعثر في خلال ذلك على كلمة مفيدة.

---

[١] ليس مجرد اختلاف أذواق، ولكن- الراجح- أن كارليل لم يحظَ بترجمة لمعاني القرآن، تقرب له معانيه، وتنقل إليه روحه. فترجمة القرآن الكريم إلى اللاتينية، يقول عنها "جورج سال": 'إن ما نشره 'بيبلياندر' في اللاتينية، زاعمًا بأنها ترجمة للقرآن الكريم، لا تستحق اسم ترجمة، فالأخطاء اللانهائية والحذف والإضافة، والتصرف بحرية شديدة، في مواضع عدة يصعب حصرها، يجعل هذه الترجمة لا تشتمل على أي تشابه مع الأصل". وفي القرن الثامن عشر، ظهرت ترجمات أنجزت أيضًا على أصل عربي، حيث نشر الإنجليزي 'جورج سال'، ترجمة مباشرة من العربية إلى الإنجليزية سنة (١٧٣٤م)، زعم في مقدمتها أن القرآن إنما هو من اختراع 'محمد'، ومن تأليفه، وأن ذلك أمر لا يقبل الجدل. وهذا هو ما أخذه كارليل على علاته. وبالإجمال فإن ترجمات المستشرقين كانت حرة التصرف في النص القرآني؛ مما أدى كثيرًا إلى انغلاق المعنى على القارئ؛ بالإضافة إلى فقدانها لعنصر التأثير والجذب. يقول R.Aznaldez: 'إن الترجمات الفرنسية، كغيرها من الترجمات الأخرى للقرآن، مهما كانت نوعيتها وضبطها، وقيمة أسلوبها، فإنها لا تؤثر في قلب غير المسلم، كما يؤثر القرآن وحده في قلب المتقين'.

[القرآن أكثر الكتب تقديسًا في تاريخ العالم]:

أما العرب، فيرونه على عكس ذلك؛ لما بيْن آياته وبين أذواقهم من الملاءمة؛ ولأن لا ترجمة ذهبتْ بحسنه ورونقه. فلذلك رآه العرب من المعجزات، وأعطَوْهُ من التبجيل ما لم يعطه أتقى النصارى لإنجيلهم. وما بَرحَ في كل زمان ومكان: قاعدة التشريع والعمل، والقانون المتبع في شئون الحياة ومسائلها، والوحي المُنَزَّل من السماء، هدىً للناس، وسراجًا منيرًا، يضيء لهم سبل العيش، ويهديهم صراطا مستقيمًا، ومصدر أحكام القضاة، والدرس الواجب على كل مسلم حفظه، والاستنارة به في غياهب الحياة.

وفي بلاد المسلمين مساجد، يُتلى فيها القرآن جميعُه كل يوم مرة، يتقاسمه ثلاثون قارئا على التوالي. وكذلك ما برح هذا الكتاب يرن صوته في آذان الألوف من خلق الله، وفي قلوبهم اثني عشر قرنا في كل آن ولحظة، ويقال: إن مِن الفقهاء مَن قرأه سبعين ألف مرة!!

[رد المطاعن عن القرآن]:

إذا خرجت الكلمة من اللسان، لم تتجاوز الآذان، وإذا خرجت من القلب، نفذت إلى القلب. والقرآن خارج من فؤاد محمد، فهو جدير أن يصل إلى أفئدة سامعيه وقارئيه[1].

وقد زعم "براديه" وأمثاله: أنه طائفة من الأخاديع والتزاويق، لفقّها محمد؛ لتكون أعذارًا له عمَّا كان يرتكب ويقترف؛ وذرائع لبلوغ مطامعه

---

[1] القرآن كلام الله بالحقيقة لفظا ومعنى، منه خرج، وإليه يعود. وهذه عقيدة جميع المسلمين التي لا يصح إسلام إلا بها. يقول الله سبحانه: {وَهَـذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلاَتِهِمْ يُحَافِظُونَ} (الأنعام:٩٢).

وغايته.

ولكنه قد آن لنا أن نرفض جميع هذه الأقوال؛ فإني لأمْقُتُ كلَّ من يرمي محمدًا بمثل هذه الأكاذيب. وما كان لذي نظر صادق قط، أن يرى في القرآن مثل ذلك الرأي الباطل.

والقرآن- لو تبصرون- ما هو إلا جمرات ذاكيات، قذفت بها نفسُ رجل كبير النفس، بعد أن أوقدتها الأفكار الطوال في الخلوات الصامتات، وكانت الخواطر تتراكم عليه بأسرع من لمح البصر، وتتزاحم في صدره حتى لا تكاد تجد مخرجًا. وقلَّ ما نطق به، في جانب ما كان يجيش بنفسه العظيمة القوية.

هذا، وقد كان تدافع الوقائع، وتدفق الخطوب، يُعجله عن روية القول، وتنميق الكلم[١].

ويالها من خطوب كانت تطيح به، وتطيرا!

فلقد كان في هذه السنين الثلاث والعشرين قطبًا لرحى حوادث متلاطمات متصادمات، وعالم كله هرج ومرج، وفتنٌ ومحن: حروبٌ مع قريش والكفار، ومخاصماتٌ بين أصحابه، وهياجُ نفسه وثورانها. كل ذلك جعله في نَصَبٍ دائم، وعناء مستمر. فلم تذق نفسه الراحة بعد قيامه بالرسالة قط[٢].

---

[١] هذا سبق قلم من الكاتب، لا يجوز قوله عن محمد ﷺ، ولا عن القرآن. ونسأل الله أن يعفو عنه.

[٢] كان رسول الله ﷺ متواصل الأحزان، دائم الفكرة، ليست له راحة، لا يتكلم في غير حاجة، طويل السَّكت، يفتتح الكلام ويختتمه بأشداقه، ويتكلم بجوامع الكلم، فصل لا فضول، ولا تقصير. دمث ليس بالجافي، ولا المهين. يعظم النعمة وإن دَقتْ، لا يذم منها شيئا، لا يذم ذواقا، ولا يمدحه. ولا تغضبه الدنيا، ولا ما كان لها، فإذا تعوطي الحق، لم يعرفه أحد، ولم يقم لغضبه شيء، حتى ينتصر له. لا يغضب لنفسه، ولا ينتصر لها"

وقد أتخيَّلُ روح محمد الحادة النارية، وهي تتململ طول الليل الساهر، يطفو بها الوجد ويرسب، وتدور بها دومات الفكر. حتى إذا أسفرت لها بارقة رأيٍ، حسبته نورًا هبط عليها من السماء، وكل عزم مقدسٍ يهم به، يخاله جبريل ووحيه.

أيزعم الأفاكون الجهلة أنه مشعوذ ومحتال[1]؟

كلا، ثم كلا!

ما كان قط ذلك القلب- المحتدم الجائش، كأنه تنور فكر يفور ويتأجج- ليكون قلب محتال ومشعوذ. لقد كانت حياته في نظره حقًا، وهذا الكون حقيقة رائعة كبيرة.

والإخلاص المحض الصراح، يظهر لي أنه فضيلة القرآن التي حببته إلى العربي المتوحش، وهي أول فضائل الكتاب- أيًا كان- وآخرها، وهي منشأ فضائل غيرها. بل لا شيء غيرها يمكنه أن يبعث للكتاب فضائل أخرى[2].

(أخرجه الطبراني في الكبير، من حديث هند بن أبي هالة التميمي، رقم: ٤١٤. والبيهقي في الشمائل، الرابع عشر من شعب الإيمان وهو باب في حب النبي ﷺ، فصل في خلق الرسول ﷺ وخلقه، رقم: ١٤٣٠).

[1] يقول المستشرق الألماني "كارل هينرش بيكر" في كتابه "الشرقيون": «لقد أخطأ من قال: إن نبي العرب دجال أو ساحر؛ لأنه لم يفهم دينه السامي. إن محمدًا جدير بالتقدير، ودينه حريٌ بالاتباع، وليس لنا أن نحكم قبل أن نعلم، وإن محمدًا خير رجل جاء إلى العالم بدين الهدى والكمال».

[2] للقرآن فضائل غير محصورة، فهو معجزة دينية إيمانية وتشريعية، ومعجزة علمية ومنهجية، ومعجزة لغوية وبلاغية، ومعجزة غيبية إلهية، ومعجزة تاريخية معصومة. وهناك كتب كثيرة عن ذلك، منها: كتاب معجزة القرآن في عصر المعلوماتية: عبد الدائم الكحيل، القرآن والتوراة والإنجيل- دراسة الكتب المقدسة في ضوء العلم الحديث: موريس بوكاي، معجزة القرآن: محمد متولي الشعراوي، القرآن والعلم الحديث: عبد الرزاق نوفل، إعجاز القرآن: أبو بكر الباقلاني، البرهان في الأعداد والأرقام على إعجاز القرآن: لؤي غازي الطيبي، خلق الإنسان بين الطب والقرآن: محمد علي البار. القرآن والعلوم العصرية: طنطاوي جوهري.

ومن العجب: أن نرى في القرآن عِرْقًا من الشعر، يجري فيه من بدايته إلى نهايته[1]. ثم يتخلله نظرات نافذات. نظرات نبي وحكيم[2].

[نفاذ القرآن إلى أغوار الأمور وأسرار الكون]:

أجلْ! لقد كان لمحمد في شئون الحياة عين بصيرة، ثم له قدرة عظيمة على أن يُوقِع في أذهاننا كلَّ ما أبصره ذهنه.

أنا لا أحفلُ كثيرًا بما جاء في القرآن من الصلوات والتحميد والتمجيد؛ لأني أرى لها في الإنجيل شبيهًا، ولكني شديد الإعجاب بالنظر الذي ينفذ إلى أسرار الأمور. فهذا أعظم ما يلذني ويُعجبني، وهو ما أجده في القرآن. وذلك- كما قلت: فضْل الله، يؤتيه من يشاء.

وكان محمد إذا سُئل أن يأتي بمعجزة قال: حسبكم بالكون معجزة[3]! انظروا إلى هذه الأرض، أليست من عجائب صنع الله، وآية على وجوده

---

[1] القرآن مخالف للشعرِ في نظمه. يقول الله تعالى: {بَلْ قَالُواْ أَضْغَاثُ أَحْلاَمٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الأَوَّلُونَ} (الأنبياء:٥). ويقول سبحانه: {وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ} (يس:٦٩).

[2] القرآن كلام الله على الحقيقة. وليس كلام بشر.

[3] ولا يعني هذا أنه لم يأت بمعجزات. بل أتى بمعجزات أكثر من غيره من الرسل، منها ما مضى، ومنها ما هو قائم، ومنها ما يتجدد. مثل: "نبع الماء من بين أصابعه غير مرة، ومثل تكثير الطعام القليل حتى أكل منه الخلق العظيم، وتكثير الماء القليل حتى شرب منه الخلق الكثير. وهذا ما جرى غير مرة له ولأمته، من الآيات ما يطول وصفه، فكان بعض أتباعه يحيي الله له الموتى من الناس والدواب، وبعض أتباعه يمشي بالعسكر الكثير على البحر حتى يعبروا إلى الناحية الأخرى. ومنهم من ألقي في النار فصارت عليه بردًا وسلامًا. وأمثال ذلك كثير" (الجواب الصحيح: ابن تيمية ٤٠٣/١). ولكنه لم يأت لهم بالمعجزات التي سألوها بعينها؛ لأنه إذا أتى النبي بمعجزة فليس لمن كذبه أن يقترح غيرها من المعجزات؛ لأن هذه الآيات- التي طلبوها- إذا أتى بها الله سبحانه فكذبوا بها، نزل عليهم العذاب في الحال، وهم لم يسألوها إلا تعنتا وكبرًا. يقول الله تعالى: {وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ} (يس:٤٦).

وعظمته؟! هذه الأرض التي خلق الله لكم، ونَهَجَ لكم فيها سُبُلا، تسعَوْن في مناكبها، وتأكلون من رزقه. وهذا السحاب المسيَّر في الآفاق، لا يدري من أين جاء، وهو مسخَّر في السماء، كلُّ سحابة كمارد أسود. ثم يسحُّ بمائه، ويهضب[1] ليحيي أرضًا مواتًا، ويُخرج منها نباتًا، ونخيلا وأعنابًا، أليس ذلك آية؟!

والأنعام خلقها لكم، تُحوِّل الكلاء لبنا، وهي فخر لكم.

والسفن- وكثيرًا ما يذكر السفن- كالجبال العظيمة المتحركة، تنشر أجنحتها، وتحتفز في سواء اليم، لها حاد من الريح. وبينما تسير إذا هي قد وقفت بغتة، وقد قبض الله الريح.

معجزات والله كل هذه. وأي معجزات بعدها تريدون؟!

ألستم أنتم معجزات؟!

لقد كنتم صغارًا، وقبل ذلك لم تكونوا شيئًا. ثم لكم جمال وقوة وعقل، ثم وهبكم الرحمة: أشرف الصفات، وتهرمون ويأتيكم المشيب، وتضعفون وتهن عظامكم، وتموتون، فتصبحوا غير موجودين.

"ثم وهبكم الرحمة".

لقد أدهشني جدًا هذه الجملة؛ فإن الله ربما كان خلق الناس بلا رحمة. فماذا كان يصير أمرهم[2]؟!

هذه من محمد نظرة نافذة إلى لُباب الحقيقة[3].

---

[1] يَهْضِب به: إذا كان يَسُحُّ سَحًّا (لسان العرب ١١/٦٩٧).

[2] أتت الرحمة في القرآن في مواضع كثيرة. منها قول الله تعالى: {مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} (فاطر:٢).

[3] القرآن كلام الله ﷻ، لا كلام محمد ﷺ.

وكذلك أرى في محمد دلائل شاعرية كبيرة، وآيات على أشرف المحامد، وأكرم الخصال. وأتبين فيه عقلا راجحًا عظيمًا، وعينًا بصيرة، وفؤادًا صادقًا، ورجلا قويًا عبقريًا. لو شاء لكان شاعرًا فحلا، أو فارسًا بطلا، أو ملكًا جليلا، أو أي صنف من أصناف البطل.

نعم لقد كان العالم في نظره معجزة أي معجزة. وكان يرى فيه كل ما كان يراه أعاظم المفكرين، حتى أمم الشمال المتوحشة، وهو: أن هذا الكون الصلب المادي، الذي هو في الحقيقة لا شيء- إنما هو آية على وجود الله- منظورةً ملموسة، وهو ظلٌ علقه الله على صدر الفضاء لا غير.

وكان يقول: هذه الجبال الشامخات ستحلل، وتذوب مثل السحاب، وتفنى.

وكان يقول: الجبال أوتاد الأرض، وإنها ستفنى كذلك يوم القيامة. وإن الأرض في ذلك اليوم العظيم تنصدع وتتفتت، وتذهب في الفضاء هباء منثورًا، فتنعدم[1].

وكان لا يزال واضحًا لعينيه سلطان الله على كل شيء، وامتلاء كل مكان بقوة مجهولة، ورونق باهر، وهول عظيم، هو القوة الصادقة، والجوهر والحقيقة.

وهذا ما يُسميه علماء العصر: القوى والمادة، ولا يرونه شيئًا مقدسًا، بل لا يرونه شيئًا واحدًا، وإنما أشياء تباع بالدرهم، وتوزن بالمثقال، وتُستعمل في تسيير السفن البخارية. فسرعان ما تنسينا الكيماويات والحسابيات ما يكمن في الكائنات من سر الله.

وما أفحش ذلك النسيان عارًا، وأكبر هذه الغفلة إثمًا!

---

[1] هذه المعاني في مواضع متفرقة في كتاب الله تعالى: القرآن الكريم.

وإذا نسينا ذلك، فأي الأمور يستحق الذكر إذن؟! فمعظم العلوم أشياء ميتة خاوية بالية، بقلة ذابلة.

نعم، وما أحسب العلوم لولا ذلك، إلا خشبًا يابسًا ميتًا، وليس هو بالشجرة النامية، ولا بالغابة الكثيفة الملتفة، التي لا تبرح تمدك بالخشب إثر الخشب، فيما تمدك وتعطيك!

ولن يجد المرء السبيل إلى العلم، حتى يجده أولا إلى العبادة. أعني أنه لا علم إلا لمن عَبَدَ، وإلا فما العلم إلا شقشقة[1] كاذبة، وبقلة- كما قلت- ذابلة.

[1] شقشقة: صوت البعير (لسان العرب ١٢/٣٨٥).

١٤ . [فرية شهوانية الدين الإسلامي]

وقد قيل، وكُتب كثيرًا في شهوانية الدين الإسلامي.

وأرى كل ما قيل وكتب جَوْرًا وظلمًا، فإن الذي أباحه محمد مما تُحرِّمه المسيحية لم يكن من تلقاء نفسه، وإنما كان جاريًا متبعًا لدى العرب من قديم الأزل[١].

وقد قللَ محمدٌ هذه الأشياء جهْده، وجعلَ عليها من الحدود ما كان في إمكانه أن يجعل.

والدين المحمدي[٢] بعد ذلك ليس بالسهل، ولا بالهين. وكيف ومعه كل ما تعلمون من الصوم، والوضوء، والقواعد الصعبة الشديد، وإقامة الصلاة خمسًا في اليوم، والحرمان من الخمر.

[الإسلام خاطب أشرف ما في النفس، لا أحطه]:

وليس- كما يزعمون- كان نجاح الإسلام، وقبول الناس إيَّاه لسهولته؛

---

[١] ماذا حرَّمت النصرانية وأحله الإسلام؟ أحلت النصرانية الخمر وأكْل كل شيء، وحرم الإسلام الخمر والخبائث والنجاسات والدم والميتة ولحم الخنزير والميتة وَما ذبح للأصنام. أحلت النصرانية الصلاة بدون طهارة، وأوجب الإسلام التطهر للصلاة، كما كان جميع الأنبياء، بما فيهم عيسى ﷺ. أحلت النصرانية دعاء غير الله، وتقديس الصور والتماثيل، وعَدَّ الإسلام كل ذلك من الشرك. يصوم المسلمون عن كل مطعوم ومشروب وعن إتيان النساء نهار أيام شهر كامل كل سنة، وليس عند النصارى مثل ذلك. جعل الإسلام فرضًا على المسلم الثري مقدارًا معلومًا من المال للفقراء والمساكين في كل عام. وليس في النصرانية مثل ذلك.

[٢] الصواب: الدين الإسلامي، لا المحمدي.

لأنه من أفحش الطعن على بني آدم، والقدح في أعراضهم، أن يُتهموا بأن الباعث لهم على محاولة الجلائل، وإتيان الجسائم، هو طلب الراحة واللذة- التماس الحلو من كل صنف في الدنيا والآخرة![1]

كلا، فإن أحسن الآدميين لا يخلو من شيء من العظمة والجلال، فالجندي الجاهل الجلف، الذي يؤجِّر يمينه وروحه في الحروب بأجر بخس، له مع ذلك "شرف" يحلف به، فتراه لا يبرح يقول: لأفعلنَّ ذلك وشرفي.

وليست أمنية أحقر الآدميين هي أن يأكل الحلوى، بل أن يأتي عملا شريفًا، وفعلا محمودًا، ويثبت للناس أنه رجل فاضل كريم.

ليعمدْ أيُّكم إلى أبلد إنسان، فيُريه سبيل المكرمات والمحامد. فإذا هو قد تأجَجَ قلبُه حماسًا، واتقدت نفسه غيرة، وصار في الحال بطلا.

وما أظلم الذين يتهمون الإنسان بقولهم: إنه ميَّال بفطرته إلى الراحة، وإنه يُستهوى بالترف، ويُستغوى باللذة!

إنما مغريات الإنسان وجاذباته هي الأهوال، والصعائب، والاستشهاد، والقتل.

اقدح ما بنفس المرء من زناد الفضل، تذكُ نارًا، تحرق سائر ما فيه من الخسائس والنقائص. وما كان قط اعتناق الناس لدين من الأديان لما يرجون من متاع ولذة. بل لما يثور في قلوبهم من دواعي الشرف والعظمة[2].

---

[1] هذا الكلام مجرد تشنيع من خصم موتور، مخالف للحقيقة.

[2] انظر مثلا إلى قول الله تعالى: {وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ} (الحج:٧٨). وقول الله سبحانه: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ أُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقّاً لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ} (الأنفال:٢-٤)... وهكذا.

١٥. [براءة محمد ﷺ من الشهوات وتواضعه وتقشفه]

وما كان محمد أخا شهوات، برغم ما اتهم به ظلمًا وعدوانا. وشد ما نجور ونخطئ إذا حسبناه رجلاً شهويًا، لا همَّ له إلا قضاء مآربه من الملاذ.

كلا، فما أبعد ما كان بينه وبين الملاذ، أية كانت!

لقد كان زاهدًا متقشفا في مسكنه، ومأكله، ومشربه، وملبسه، وسائر أموره وأحواله. وكان طعامه عادة الخبز والماء، وربما تتابعت الشهور ولم توقد بداره نار[١]. وإنهم ليذكرون- ونعم ما يذكرون- أنه كان يصلح نعله، ويرفو ثوبه بيده[٢]، فهل بعد ذلك مكرمة ومفخرة؟!

---

[١] عن عائشة- رضي الله عنها- أنها قالت: "وايم الله! يا بن أختي! إن كان ليمُرُّ على آل محمد ﷺ الشهرُ، ما يوقد في بيت رسول الله ﷺ من نار، إلا أن يكون اللحيم، وما هو إلا الأسودان: الماء، والتمر، إلا أن حولنا أهل دور من الأنصار- جزاهم الله خيرًا- في الحديث والقديم، فكل يوم يبعثون إلى رسول الله ﷺ بغزيرة شاتهم. يعني فينال رسول الله ﷺ من ذلك اللبن. ولقد توفي رسول الله ﷺ وما في رفي من طعام يأكله ذو كبد، إلا قريب من شِطر شعير، فأكلت منه حتى طال علي، لا يفنى، فكلته ففني. فليتني لمْ أكن كلته. وايم الله! لأن كان ضجاعة من أدم، حشوه ليف" (أخرجه أحمد في المسند، حديث: ٢٤٨١٢). وصححه الأرنؤوط.

[٢] عن عائشة- رضي الله عنها- أنها سئلت ما كان رسول الله ﷺ يعمل في بيته؟ قالت كان يخيط ثوبه، ويخصف نعله، ويعمل ما يعمل الرجال في بيوتهم" (أخرجه أحمد في مسنده، حديث: ٢٤٩٤٧). وصححه الأرنؤوط.

فحبذا محمد من رجل خشن اللباس، خشن الطعام، مجتهد في الله، قائم النهار، ساهر الليل، دئبًا في نشر دين الله، غير طامح إلى ما يطمح إليه أصاغر الرجال من رتبة، أو دولة، أو سلطان. غير متطلع إلى ذكر أو شهرة كيفما كانت[1]!

رجل عظيم وربكم! وإلا فما كان ملاقيًا من أولئك العرب الغلاظ توقيرًا واحترامًا، وإكبارًا وإعظامًا، وما كان ممكنه أن يقودهم، ويعاشرهم معظم أوقاته، ثلاثاً وعشرين حجة، وهم ملتفون به، يقاتلون بين يديه، ويجاهدون حوله.

لقد كان في هؤلاء العرب جفاء، وغلظة، وبادرة[2]، وعَجْرفية[3]، وكانوا حماة الأنوف، أباة الضيم[4]، وعُرُ المقادة[5]، صعاب الشكيمة[6]، فمن قدَر على رياضتهم، وتذليل جانبهم حتى رضخوا له، واستقادوا[7]، فذلكم- وايم الله- بطلٌ كبير. ولولا ما أبصروا فيه من آيات النبْل والفضل، لما خضعوا له، ولا أذعنوا. وكيف وقد كانوا أطوع له من بنانه!

---

[1] عن أبي سعيد الخدري: أن رسول الله ﷺ جلس على المنبر فقال: عبدٌ خيَّره الله بين أن يؤتيه زهرة الدنيا، وبين ما عنده، فاختار ما عنده، فبكى أبو بكر وبكى. فقال: فديناك بآبائنا وأمهاتنا! قال فكان رسول الله ﷺ هو المخيَّر. وكان أبو بكر أعلمنا به" (أخرجه البخاري، أبواب المساجد، باب الخوخة والممر في المسجد، حديث: ٤٥٤. ومسلم، كتاب فضائل الصحابة ﷺ، باب من فضائل أبي بكر الصديق، حديث: ٢٣٨٢).

[2] بادرة: بَدَرَتْ منه بَوادِرُ غضَبٍ، أي خَطَأٌ، وسَقَطاتٌ عندما احْتَدَّ. والبادِرَةُ من الكلام: التي تَسْبِقُ من الإنسان في الغضب (لسان العرب ٤٨/٤).

[3] عَجْرفية: هي الجَفْوة في الكلام، والخُرْق في العمَل، والسرعة في المشي (لسان العرب ٢٣٤/٩).

[4] أباة الضيم: يرفضون المذلة والمهانة.

[5] وعر المقادة: صعب القياد، غير ذلول.

[6] الشكيمة: هي الحَديدَةُ المُعْتَرِضَةُ في فَمِ الفرَس. ويعبر بها عن الأَنَفَةُ والإنْتصارُ من الظلْم. وفلانٌ شَديدُ الشَّكيمَةِ: أَنِفٌ، أَبِيٌّ لا يَنْقادُ (القاموس المحيط، مج١، ص١٤٥٥).

[7] اسْتَقَادوا: الانْقِيَادُ الخضوع، يقال: قادَهُ فانْقادَ، واسْتَقادَ أيضًا (مختار الصحاح، ص٥٦٠).

وظني أنه لو كان أتيحَ لهم بدل محمد، قيصر من القياصرة، بتاجه وصولجانه، لما كان مصيبًا من طاعتهم مقدار ما ناله محمد، في ثوبه المرقع بيده[1].

فكذلك تكون العظمة!

وهكذا تكون الأبطال!

---

[1] وعند البخاري: أن عروة بن الزبير جعل يرمق أصحاب النبي ﷺ بعينه قال: فوالله ما تنخَّمَ رسول الله ﷺ نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم، فدلك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده، وما يُحِدون إليه النظر؛ تعظيمًا له. فرجع عروة إلى أصحابه فقال: أي قوم! والله لقد وفدت على الملوك، ووفدتُ على قيصر وكسرى والنجاشي، والله إن رأيت ملكا قط يعظمه أصحابه، ما يعظم أصحاب محمد ﷺ محمدًا" (أخرجه البخاري، كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد، حديث: ٢٥٨١).

١٦. [من كلمات محمد ﷺ ومواقفه الحكيمة]

وكانت آخر كلماته تسبيحًا وصلاة- صوت فؤاد يهم بين الرجاء والخوف، أن يصعد إلى ربه[١].

[محمد ﷺ الرحيم أخو الإنسانية]:

ولا نحسب أن شدة تدينه أزرَتْ بفضله. كلا، بل زادته فضلا. وقد يُروى عنه مكرمات عالية، منها قوله حين رُزِئ[٢] غلامَهُ:

"العين تدمع، والقلب يوجع، ولا نقول ما يُسخط الرب"[٣].

---

[١] عن عائشة قالت: إن من نعم الله عليَّ، أن رسول الله ﷺ توفي في بيتي، وفي يومي، وبين سَحْري ونَحْري، وأن الله جمع بين ريقي وريقه عند موته: دخل عليَّ عبد الرحمن وبيده السواك، وأنا مسندة رسول الله ﷺ، فرأيته ينظر إليه، وعرفت أنه يحب السواك، فقلت آخذه لك؟ فأشار برأسه: "أن نعم". فتناولته، فاشتدَّ عليه. وقلت أُلينهُ لك؟ فأشار برأسه: "أن نعم". فلينتُهُ، فأمره وبين يديه ركوة، أو عُلبة- يشك عمر- فيها ماء، فجعلَ يُدخل يديه في الماء، فيمسح بهما وجهه يقول: "لا إله إلا الله. إن للموت سكرات!". ثم نصَبَ يده، فجعل يقول: "اللهم في الرفيق الأعلى". حتى قبض، ومالت يده" (أخرجه البخاري، كتاب المغازي، باب مرض النبي ﷺ ووفاته، حديث: ٤١٨٤).

[٢] رزئ: مَرْزِئة ورَزِيئة، هي المُصِيبة. والجمع أَرْزاءٌ، ورَزايا (لسان العرب ٨٥/١).

[٣] عن أسماء بنت يزيد قالت: لما توفي ابن رسول الله ﷺ إبراهيم، بكى رسول الله ﷺ. فقال له المعزي (إمَّا أبو بكر، وإمَّا عمر): أنت أحقُّ مَن عظم الله حقه! قال رسول الله ﷺ: "تدمع العين، ويحزن القلب، ولا نقول ما يُسخط الرب. لولا أنه وعدٌ صادق، وموعود جامع، وأن الآخر تابع للأول- لوَجِدنا عليك- يا إبراهيم- أفضلَّ مما وَجِدْنا. وإنا بك

ولما استشهد مولاه زيد (بن حارثة) في غزوة "مؤتة"، قال محمد:

"لقد جاهد زيد في الله حق جهاده. وقد لقي الله اليوم، فلا بأس عليه"[1].

ولكن ابنة زيد وجدته بعد ذلك يبكى على جثة أبيها. وجدت الرجل الكهل- الذي دبَّ في رأسه المشيب- يذوب قلبه دمعًا! فقالت: "ماذا أرى"؟ قال: "صديقًا يبكي صديقه"[2].

مثل هذه الأقوال، وهذه الأفعال ترينا في محمد: أخا الإنسانية الرحيم- أخانا جميعًا الرءوف الشفيق، وابن أمِّنا الأولى، وأبينا الأول[3].

لمحزونون" (أخرجه ابن ماجه، كتاب الجنائز، باب ما جاء في البكاء على الميت، حديث: ١٥٨٩).

[1] أخرجه أحمد في المسند، من حديث عبد الله بن جعفر بن أبى طالب ﷺ، حديث: ١٧٥٠.

[2] عن ابن مسعود قال: لما قتل زيد بن حارثة، أبطأ أسامة بن زيد عن النبي ﷺ فلم يأته. ثم جاءه بعد ذلك، فقام بين يدي النبي ﷺ، فدمعت عيناه، فبكى رسول الله ﷺ. فلما نزفت عبرته قال النبي ﷺ: "لِمَ أبطأت عنا، ثم جئت تحزننا؟" قال: فلما كان الغد جاءه، فلما رآه النبي ﷺ مُقبلا قال: "إني للاق منك اليوم، ما لقيت منك أمس". فلما دنا دمعت عينه، فبكى رسول الله ﷺ" (أخرجه عبد الرزاق في مصنفه، كتاب الجنائز، باب الصبر والبكاء والنياحة، حديث: ٦٦٩٨).

[3] عن أسامة بن زيد قال: كان ابن لبعض بنات رسول الله ﷺ يُقضى. فأرسلتْ إليه أن يأتيها. فأرسل إليها: "أن لله ما أخذ، وله ما أعطى. وكلٌّ شيء عنده إلى أجل مُسمًّى. فلتصبرْ، ولتحتسب". فأرسلت إليه، فأقسمت عليه. فقام رسول الله ﷺ، وقمتُ معه. ومعه معاذ بن جبل، وأبي بن كعب، وعبادة بن الصامت. فلمّا دخلنا، ناولوا الصبي رسول الله ﷺ، وروحه تقلقل في صدره. قال: حسبته قال كأنها شنة. قال: فبكى رسول الله ﷺ. فقال له عبادة بن الصامت: ما هذا يا رسول الله؟ قال: "الرحمة التي جعلها الله في بني آدم. وإنما يرحم الله من عباده الرحماء" (أخرجه البخاري، كتاب الجنائز، باب قول النبي ﷺ: "يعذب الميت ببعض بكاء أهله عليه"، حديث: ١٢٢٤. وابن ماجه، كتاب الجنائز، باب ما جاء في البكاء على الميت، حديث: ١٥٨٨).

[براءة محمد ﷺ من التكلف والرياء والخب]:

وإني لأحب محمدًا لبراءة طبعه من الرياء والتصنع.

ولقد كان ابن القفار هذا رجلا مستقل الرأي، لا يُعَوِّل إلا على نفسه، ولا يَدَّعي ما ليس فيه.

ولم يكُ متكبرًا، ولكنه لم يكن ذليلا ضَرِعًا[1]. فهو قائم في ثوبه المرقع، كما أوجده الله، وكما أراد. يخاطب بقوله الحرِّ المبين قياصرة الروم، وأكاسرة العجم، يرشدهم إلى ما يجب عليهم لهذه الحياة، وللحياة الآخرة[2].

وكان يعرف لنفسه قدرها[3].

ولمْ تخلُ الحروب الشديدة التي وقعت له مع الأعراب من مشاهد قسوة[4]، ولكنها لم تخلُ كذلك من دلائل رحمة وكرم وغفران[5].

---

[1] ضَرَعَ الرجل يَضْرَع ضَراعةً: خضعَ، وذلَّ (مختار الصحاح، ص٤٠٣).

[2] أرسل الرسول ﷺ كتبه إلى كسرى فارس، وقيصر الروم يدعوهم إلى الله. عن سعيد بن المسيب قال: "كتب رسول الله ﷺ إلى كسرى، وقيصر، والنجاشي. أمَّا بعد، تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم: أن لا نعبد إلا الله، ولا نشرك به شيئا، ولا يتخذ بعضنا بعضًا أربابًا من دون الله. فإن تولوا فقولوا: اشهدوا بأنا مسلمون" (أخرجه عبد الرزاق في المصنف، كتاب المغازي، ما ذكر في كتب النبي ﷺ، حديث: ٣٦٦٢٧).

[3] قال رسول الله ﷺ: "أنا سيد ولد آدم يوم القيامة، وأول من ينشق عنه القبر، وأول شافع، وأول مشفع" (أخرجه مسلم، كتاب الفضائل، باب تفضيل نبينا ﷺ على جميع الخلائق، حديث: ٢٢٧٨).

[4] من مشاهد القوة ما رواه أنس ﷺ قال: قدم على النبي ﷺ نفر من عكل، فأسلموا، فاجتووا المدينة، فأمرهم أن يأتوا إبل الصدقة، فيشربوا من أبوالها وألبانها. ففعلوا، فصحوا، فارتدوا، وقتلوا رعاتها، واستاقوا الإبل. فبعث في آثارهم، فأتي بهم، فقطع أيديهم وأرجلهم، وسمل أعينهم، ثم لم يحسمهم حتى ماتوا" (أخرجه البخاري، كتاب المحاربين من أهل الكفر والردة، حديث: ٦٤١٧. ومسلم، كتاب القسامة، باب حكم المحاربين والمرتدين، حديث: ١٦٧١).

[5] من مشاهد الغفران ما رواه جابر بن عبد الله قال: قاتل رسول الله ﷺ محارب خصفة بنخل، فرأوا من المسلمين غرة، فجاء رجل منهم، يقال له: غورث بن الحرث، حتى قام

وكان محمد لا يعتذر من الأولى، ولا يفتخر بالثانية. إذ كان يراها من وحي وجدانه، وأوامر شعوره. ولم يكن وجدانه لديه بالمتهم، ولا شعوره بالظنين[1].

وكان رجلا ماضي العزم، لا يؤخر عمل اليوم إلى غد. وطالما كان يذكر يوم "تبوك"، إذ أبى رجاله السير إلى موطن القتال، واحتجوا بأنه أوان الحصيد، واحتجوا بالحر. فقال لهم:

"الحصيد: إنه لا يلبث إلا يومًا، فماذا تتزودون للآخرة؟ والحر؟ نعم إنه حر، ولكن جهنم أشدُّ حرًا"[2].

وربما خرج بعض كلامه تهكمًا وسخرية. إذ يقول للكفار ستجزون يوم القيامة عن أعمالكم، يوزن لكم الجزاء، ثم لا تبخسون مثقال ذرة[3].

على رأس رسول الله ﷺ بالسيف، فقال: مَن يمنعك مني؟ قال: الله ﷻ! فسقط السيف من يده، فأخذه رسول الله ﷺ، فقال: مَن يمنعك مني؟ قال: كن كخير آخذ! قال: أتشهد أن لا إله إلا الله؟ قال: لا. ولكني أعاهدك أن لا أقاتلك، ولا أكون مع قوم يقاتلونك. فخلى سبيله. قال: فذهب إلى أصحابه قال: قد جئتكم من عند خير الناس" (أخرجه البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة ذات الرقاع، حديث: ٣٩٠٥. مسلم، كتاب الفضائل، باب توكله على الله تعالى وعصمة الله تعالى له من الناس، حديث: ٨٤٣. أحمد في المسند، من حديث جابر بن عبد الله ﷺ، حديث: ١٤٩٧١. واللفظ له).

[1] الظنين: المتهم (لسان العرب ٢٧٢/١٣).

[2] عن كعب بن مالك ﷺ قال: كان رسول الله ﷺ قلما يريد غزوة يغزوها، إلا ورَّى بغيرها. حتى كانت غزوة تبوك، فغزاها رسول الله ﷺ في حر شديد، واستقبل سفرًا بعيدًا ومفازًا، واستقبل غزو عدو كثير، فجلى للمسلمين أمرهم؛ ليتأهبوا أهبة عدوهم. وأخبرهم بوجهه الذي يريد" (أخرجه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب من أراد غزوة فورَّى بغيرها، حديث: ٢٧٨٨). وذلك في قول الله ﷻ: {فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ} (التوبة:٨١).

[3] يقول الله تعالى: {وَمَن جَاء بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ} (النمل:٩٠).

وما كان محمدُ بعابث قط، ولا شابَ شيئًا من قوله شائبة لعب ولهو. بل كان الأمر عنده أمر خُسران وفلاح، ومسألة فناء وبقاء. ولم يكُ منه إزاءها إلا الإخلاص الشديد، والجد المُرُّ.

فأما التلاعب بالأقوال، والقضايا المنطقية، والعبث بالحقائق، فما كان من شأنه قط. وذلك عندي أفظع الجرائم؛ إذ ليس هو إلا رقدة القلب، ووسن[1] العين عن الحق، وعيشة المرء في مظاهر كاذبة. وليس كل ما يُستنكر من مثل هذا الإنسان، هو أن جميع أقواله وأعماله أكاذيب، بل إنه هو نفسه أكذوبة.

وأرى خصلة المروءة والشرف- شعاع الله- مُتضائلا في مثل ذلك الرجل مضطربًا بين عوامل الحياة والموت، فهو رجل كاذب.

لا أنكر أنه مصقول اللسان مهذب، حواشي الكلام، محترم في بعض الأزمان والأمكنة، لا تؤذيك بادرته، لين المسِّ، رفيق الملمس، كحمض الكربون، تراه- على لطفه- سمًا نقيعًا، وموتًا ذريعًا.

[من مبادئ الإسلام السامية]:

وفي الإسلام خلة، أراها من أشرف الخلال وأجلها، وهي التسوية بين الناس. وهذا يدل على أصدق النظر، وأصوب الرأي، فنفس المؤمن راجحة بجميع دول الأرض، والناس في الإسلام سواء[2].

والإسلام لا يكتفي بجعل الصدقة سُنَّة محبوبة، بل يجعلها فرضًا حتمًا

---

[1] الوَسَنُ والسِّنَةُ: النعاس (مختار الصحاح، ص٧٤٠).

[2] يقول الله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ} (الحجرات:١٣).

على كل مسلم، وقاعدة من قواعد الإسلام، ثم يُقدرها بالنسبة إلى ثروة الرجل، فتكون جزءًا من أربعين من الثروة. تعطى إلى الفقراء والمساكين والمنكوبين[1].

جميل- والله- كل هذا! وما هو إلا صوت الإنسانية. صوت الرحمة والإخاء والمساواة، يصيح من فؤاد ذلك الرجل- ابن القفار والصحراء.

[1] فرض الله صدقة في أموال الأغنياء ترد في فقرائهم، وجعل لها نصابًا يميز الفقير من الغني، وجعلها في المال جزءًا من أربعين من الثروة. أما زكاة الزروع والثمار، وزكاة الأنعام، وزكاة المستغلات، وزكاة الركاز- فلها حساب آخر.

١٧. وصف الجنة ونعيمها في الإسلام

وينكر البعض تغلب الحسية والمادية على جنة محمد وناره[١].

فأقول: إن العيب في ذلك على الشراح والمفسرين، لا على ما جاء في الكتاب؛ فإن القرآن قد أقلَّ جدًا من إسناد الحسيات والماديات إلى الجنة والنار. وكل ما فيه عن هذا الشأن إيماءٌ وتلميح.

وإنما المفسرون والشراح، هم الذين لم يتركوا لذة حسية، ولا متعة شهوية، حتى ألحقوها بالجنة، ولا عذابًا بدنيًا، وألمًا جثمانيًا، حتى أسندوه إلى النار.

ثم لا تنسوا أن القرآن جعل أكبر ملاذ الجنة روحانيًا، إذ قال: ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا: سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ (الزمر:٧٣)[٢].

فالسلام والأمن، هما في نظر كل عاقل، أقصى أماني المرء، وأعظم الملاذ

---

[١] ما ضر الجنة أن يكون فيها متع القلب والعقل، والجسد والروح، وهي دار جعل الله فيها لأهل الإيمان كل ما تشتهي أنفسهم وما يدَّعون؟!

[٢] أكبر ملاذ الجنة هو النظر إلى وجه الله الكريم، يقول الله سبحانه: {لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ وَلاَ يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلاَ ذِلَّةٌ أُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} (يونس:٢٦). ويقول النبي ﷺ: "إذا دخل أهل الجنة الجنة يقول الله- تبارك وتعالى: تريدون شيئا أزيدكم؟ فيقولون: ألمْ تبيض وجوهنا؟ ألمْ تدخلنا الجنة، وتنجنا من النار؟ قال: فيكشف الحجاب، فما أعطوا شيئا أحب إليهم من النظر إلى ربهم ﷻ" (أخرجه مسلم، كتاب الإيمان، باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم ﷻ، حديث: ١٨١).

قاطبة. والشيء الذي عبثًا يلتمسه الإنسان في الحياة الدنيا.

وقال أيضًا: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَاناً عَلَى سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ (الحجر:٤٧).

وأي رذيلة أخبث من الغل، مصدر المحن والمصائب، والنقم والآفات؟! وأي شيء أهنأ من التآلف والتصافي؟!

وأي دليل أشهر ببراءة الإسلام من الميل إلى الملاذ من شهر رمضان، الذي تلجم فيه الشهوات، وتزجر النفسُ عن غاياتها، وتقدع[1] عن مآربها! وهذا هو منتهى العقل والحزْم؛ فإن مباشرة اللذات ليس بالمنكر، وإنما المنكر هو أن تذل النفس لجبار الشهوات، وتنقاد لحادي الأوطار والرغبات.

ولعل أمجد الخصال، وأشرف المكارم، هو أن يكون للمرء من نفسه على نفسه سلطان، وأن يجعل من لذاته، لا سلاسل وأغلالا تعييه، وتعتاص[2] عليه، إذا هم أن يصدعها- بل حُليًّا وزخارف، متى شاء، فلا أهون عليه من خلعها، ولا أسهل من نزعها.

وكذلك أمر رمضان، سواء كان مقصودًا من محمد معينًا، أو كان وحي الغريزة، وإلهامًا فطريًا، فهو والله نِعْمَ الأمر[3]!

ويمكننا القول، على كل حال، بأن الجنة والنار هاتين، هما رمز لحقيقة أبدية، لم تصادف من حسن الذكر قط، مثلما صادفت في القرآن. وماذا ترون تلك الجنة وملاذها، وهاته النار وعذابها، وقيام الساعة التي يقول

[1] تقدع: تردع، يقال: قَدَعْتُ الرجل عن الأَمر فَقَدِعَ، أَي كَفَفْتُـه فكَـفَّ وارْتَـدَعَ (لسان العرب ٨/٢٦٠).

[2] تعتاص عليه: اشْتَدَّ والتاثَ عليه، فلمْ يَهْتَدِ للصَّوابِ (القاموس المحيط، مج١، ص٨٠٦).

[3] التشريعات في الإسلام لمقاصد وحكم. وفي حكمة الصيام بيّن الله أنها التقوى بقوله: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} (البقرة:١٨٣).

عنها: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُم بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ (الحج:٢).

ماذا ترون كل هذه إلا ظلا تمثل في خيال ذلك النبي الشاعر للحقيقة الروحانية الكبرى، رأس الحقائق، أعني الواجب، وجَسامة أمره؟!

لقد كان هذا الرجل يرى الحياة أمرًا جسيمًا، ويرى لكل عمل إنساني، مهما حقر خطارة كبرى. فما كان من سيئ، فله من السوء نتيجة أبدية، وما كان صالحًا، فله من الصلاح ثمرة سرمدية، وإن المرء قد يسمو بصالحاته إلى أعلى عليين، ويهبط بموبقاته إلى أسفل سافلين، وإن على عمره القصير، تقوم دعائم أبدية هائلة خفية.

كل ذلك كان يلتهب في روح ذلك الرجل القفري، كأنما قد نُقش ثمة بأحرف النار. وكل ذلك قد حاول في أشد إخلاص، وأحَدِّ حَدٍّ أن يُخرجه للناس، ويصوره لهم. فأخرجه وصوره في صورة تلكم النار والجنة.

وأيُّ ثوب لبسته هذه الحقائق، وأيُّ قالب صُبَّتْ فيه، فلا تزال أولى الحقائق مقدسة، في أي أسلوب، وأي صورة[1].

[1] القرآن هو كلام الله تعالى، ولم يصدر من خيال محمد، كما يظن الكاتب.

١٨. [الإسلام دينٌ حيٌ متحرك]

وعلى كل حال، فهذا الدين ضرْب من النصرانية، وفيه للمبصرين أشرف معاني الروحانية وأعلاها. فاعرفوا له قدره، ولا تبخسوه حقه.

ولقد مضى عليه مئتان وألف عام[١]، وهو الدين القويم، والصراط المستقيم لخُمس العالم[٢]. وما زال، فوق ذلك، دينًا يؤمن به أهله من حبَّات أفئدتهم.

ولا أحسب أن أمَّة من النصارى اعتصموا بدينهم اعتصام المسلمين بإسلامهم؛ إذ يوقنون به كل اليقين؛ ويواجهون به الدهر والأبد.

وسينادي الحارسُ الليلة في شوارع القاهرة أحدَ المارة: "مَن السائر؟"، فيجيبه السائر: "لا إله إلا الله".

وإن كلمة التوحيد، والتكبير، والتهليل، لَترِنُ- آناء الليل وأطراف النهار- في أرواح تلك الملايين الكثيفة.

وإن الفقهاء- ذوي الغيرة في الله، والتفاني في حبِّه، ليأتونَ شعوبَ الوثنية بالهند، والصين، والمالاي[٣]، فيهدمون أضاليلهم، ويشيدون مكانها قواعد

---

[١] الآن أكثر من أربعمئة وألف عام.

[٢] في عام (٢٠٥٠م)، سيصبح المسلمون نصف سكان العالم، طبقا للمعدل الطبيعي لتزايد السكان.

[٣] المالاي: هم السكان الأصليون لسنغافورة. وحاليًا ١٤٪ منهم فقط من المالاي، والباقي هنود وصينيون وأعراق أخرى. ولغة السنغافوريين الأم (اللغة الوطنية) هي المالاي. يبلغ

الإسلام.

ونِعْمَ ما يفعلون!

طائفة المالاي ٤٠٪ من إجمالي السكان في ماليزيا. والباقي من الصينيين والهنود. وفي جنوب تايلاند- التي يُعتقد أن الإسلام انتشر في جنوب شرق أسيا بدءًا منها- تمثل مجموعة المالاي غالبية السكان. وفي بروناي دار السلام يبلغ المالاي نسبة ٦٩٪ من السكان، والباقي من الصينيين والهنود.

١٩. [فضل الإسلام على العرب والعالم]

ولقد أخرج الله العرب بالإسلام، من الظلمات إلى النور، وأحيى به من العرب أمة هامدة، وأرضاها مدة.

وهل كانت إلا فئة من جوالة الأعراب، خاملة فقيرة، تجوب الفلاة، منذ بدء العالم، لا يُسمع لها صوتٌ، ولا تُحسُ منها حركة! فأرسل الله لهم نبيًا، بكلمة من لدنْهُ، ورسالة من قِبَلِه. فإذا الخمول قد استحال شهرة، والغموض نباهة، والضعة رفعة، والضعف قوة، والشرارة حريقا، وَسِعَ نورُهُ الأنحاءَ، وعَمَّ ضوءُهُ الأرجاءَ، وعقد شعاعُهُ الشمال بالجنوب، والمشرق بالمغرب[١].

وما هو إلا قرْن- بعد هذا الحادث- حتى أصبح لدولة العرب: رجل في الهند[٢]، ورجل في الأندلس[١]. وأشرقت دولة الإسلام حقبًا عديدة، ودهورًا

---

[١] ولكل عاقل أن يرى هذا من دلائل نبوة محمد ﷺ.

[٢] دخل الإسلام الهند والسند على يد محمد بن القاسم الثقفي، المتوفى سنة (٩٨هـ)، وذلك في عهد الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك. وقد انتشر الإسلام بعد ذلك على يد التجار والزهاد والدعاة المخلصين انتشارًا ليس بالكبيرً. واستقر الحكم الإسلامي في الهند، وقامت له دولة منذ أن بدأ السلطان التركي المجاهد محمود الغزنوي فتوحاته العظيمة في الهند سنة (٣٩٢هـ/١٠٠١م)، وامتد لأكثر من ثمانية قرون، تعاقبت في أثنائها الدول والأسر الحاكمة المسلمة. ونعم الناس بالأمن والسلام، والعدل والمساواة، وازدهرت حضارة لا تزال آثارها باقية في الهند، تخطف الأبصار، وتبهر العقول. إلى أن احتل الإنجليز الهند في

مديدة، بنور الفضل والنبل، والمروءة والبأس، والنجدة. ورَوْنَقَ الحقُّ والهدى على نصف المعمورة.

وكذلك الإيمان عظيم. وهو مبعث الحياة، ومنبع القوة. وما زال للأمة رقيٌّ في دَرَج الفضل، وتعْريجٌ[٢] إلى ذُرى المجد، ما دام مذهبها اليقين، ومنهاجها الإيمان.

ألستم ترون في حالة أولئك الأعراب، ومُحمدهمْ، وعصرهم، كأنما قد وقعتْ من السماء شرارةٌ على تلك الرمال، التي كان لا يُبْصَرُ بها فضلٌ، ولا يُرجَى فيها خيرٌ. فإذا هي بارودٌ سريعُ الانفجار، وما هي بِرَمِلٍ ميت، وإذا هي قد تأججتْ، واشتعلت، واتصلت نيرانها بين غرناطة ودلهي؟!

ولطالما قلتُ: إن الرجل العظيم، كالشهاب من السماء، وسائر الناس في انتظاره كالحطب، فما هو إلا أن يسقط، حتى يتأججوا ويلتهبوا.

القرن التاسع عشر الميلادي، وقضوا على الحكم الإسلامي فيها.

[١] دخل المسلمون شبه جزيرة أيبيرية (الأندلس) فاتحين سنة (٩٢هـ/٧١١م) بقيادة طارق بن زياد، وأشاعوا فيها الخير والسلام، وعمّروا نواحيها بالسماحة والعدل، وأقاموا بها حضارة سامقة، لا تزال آثارها- في أشبيلية وغرناطة وقرطبة وطليطلة- شاهدة على ما بلغته، تحت حكم المسلمين، من رقي وتقدم، وغنى وازدهار. وقد استمر حكم المسلمين للأندلس ثمانية قرون، انتهت بسقوط غرناطة سنة (٨٩٧هـ/١٤٩٢م).

[٢] تعْرِيجٌ: صعود.

المراجع

- القرآن الكريم.
- الكتاب المقدس، نسخة إلكترونية.

كتب السنة:

١. إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل: محمد ناصر الدين الألباني، ط٢، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.

٢. سنن البيهقي الكبرى: أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي (٤٥٨هـ)، تحقيق: محمد عبد القادر عطا مكتبة دار الباز، مكة المكرمة، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م.

٣. سنن الترمذي (الجامع الصحيح): محمد بن عيسى، أبو عيسى الترمذي، تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرون، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٤. سنن ابن ماجه: محمد بن يزيد أبو عبد الله القزويني، تحقيق:محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر، بيروت.

٥. السلسلة الصحيحة: محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف، الرياض.

٦. سنن النسائي: أحمد بن شعيب أبو عبد الرحمن النسائي، ط٢،

تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة، مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.

٧. شعب الإيمان: أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي، تحقيق: محمد السعيد زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٠هـ.

٨. صحيح البخاري: أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، ط٣، تحقيق: د.مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير- اليمامة، بيروت، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.

٩. صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان: محمد بن حبان أبو حاتم التميمي البستي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م.

١٠. صحيح مسلم: أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

١١. المستدرك على الصحيحين: أبو عبد الله الحاكم النيسابوري (٤٠٥هـ)، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١١هـ/١٩٩٠م.

١٢. المسند: أبو عبد الله أحمد بن حنبل الشيباني، مؤسسة قرطبة، القاهرة.

١٣. مسند أبي يعلى: أحمد بن علي، أبو يعلى الموصلي التميمي (٣٠٧هـ)، تحقيق: حسين سليم أسد، دار المأمون للتراث، دمشق، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.

١٤. مصنف عبد الرزاق: أبو بكر عبد الرزاق بن همام الصنعاني (٢١١هـ)، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، الطبعة الثانية، المكتب الإسلامي

- بيروت، ١٤٠٣هـ.

١٥. المعجم الكبير: أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، الطبعة الثانية، مكتبة العلوم والحكم، الموصل، ١٤٠٤هـ/١٩٨٣م.

التاريخ:

١. البداية والنهاية: إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي، مكتبة المعارف، بيروت.

٢. تاريخ الطبري (تاريخ الأمم والملوك): محمد بن جرير الطبري، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٧هـ.

٣. الطبقات الكبرى: محمد بن سعد بن منيع، أبو عبدالله البصري الزهري، دار صادر، بيروت.

٤. اليهود في تاريخ الحضارات الأولى: جوستاف لوبون، ترجمة: عادل زعيتر، عيسى البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٧٠م.

القواميس والمعاجم:

١. كتاب العين: أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي، تحقيق: د.مهدي المخزومي، د.إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال، بيروت.

٢. القاموس المحيط: محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، ط٦، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م.

٣. لسان العرب: محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري، دار صادر، بيروت.

٤. مختار الصحاح: محمد بن أبي بكر الرازي، تحقيق: محمود خاطر، مكتبة لبنان، بيروت، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م.

٥. المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي: أحمد بن محمد بن علي المقري الفيومي، المكتبة العلمية، بيروت.

٦. معجم البلدان: أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي (٦٢٦هـ)، دار الفكر، بيروت.

كتب أخرى:

١. الأبطال: توماس كارليل، عربه: محمد السباعي، ط٣، المكتبة التجارية، القاهرة، ١٣٤٩هـ/ ١٩٣٠م.

٢. جامع البيان عن تأويل آي القرآن: أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (٣١٠هـ)، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٥هـ.

٣. المسيحية نشأتها وتطورها: شارل جينيبر، ط٣، ترجمة: د.عبد الحليم محمود، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٨م.

٤. موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية: د.عبد الوهاب المسيري (نسخة إلكترونية).

٥. هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى: محمد بن أبي بكر أبو عبد الله، الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة.

مواقع الشبكة الدولية للمعلومات (الإنترنت):

١. إسلام أون لاين.

٢. موقع ويكيبيديا، الموسوعة الحرة.

٣. موقع بيت الله.

٤. makkah-development.gov.

كتب للمؤلف

١) في انتظار حورية من الجنة، مكتبة التراث الإسلامي، القاهرة، ط ٢، ١٩٩٠م.

٢) صدام حسين في ميزان الإسلام، الزهراء للإعلام العربي، القاهرة، ١٩٩٠م.

٣) الأمن الثقافي العربي، التحديات وآفاق المستقبل، أكاديمية نايف للعلوم الأمنية، الرياض، ١٩٩١م.

٤) البلاء الإلهي لماذا ينزل بالمسلمين؟ دار الصفا، القاهرة، ١٩٩٢م.

٥) ظاهرة الزواج السري: الوقائع -الأسباب- الحكم الشرعي، دار البشير، القاهرة، ١٩٩٥م.

٦) أكذوبة الأصولية الإسلامية، وتحدي الأصوليات اليهودية والمسيحية، دار البشير، القاهرة، ١٩٩٨م.

٧) حرب أمريكا المقدسة على العراق، دار البشير، القاهرة، ٢٠٠٣م.

٨) هرمجدون، مكتبة النافذة، القاهرة، ٢٠٠٣م.

٩) الاستمناء وحياتنا الجنسية، دار البشير، القاهرة، ١٩٩٨م.

١٠) آرمجدون- نبرد آخر الزمان به روايت مسيحيان صهيونست، انتشارات هلال، تهران، ٢٠٠٦م.

١١) لماذا أسلمت؟ قصة إسلام أحد كبار علماء النصارى: الحسن بن أيوب، مكتبة النافذة، القاهرة، ٢٠٠٦م.

١٢) دلائل النبوة: معجزات محمد ﷺ الدالة على نبوته من النقل والعقل، مكتبة النافذة، القاهرة، ٢٠٠٦م.

١٣) جهود ابن القيم في مقارنة الأديان، دار ابن عفان، القاهرة (تحت الطبع).

١٤) أقوى من إسرائيل- فتوى في الصلح مع اليهود. (تحت الطبع).

١٥) حكم النبي محمد: تولستوي، مكتبة النافذة، القاهرة، ٢٠٠٦م.

١٦) اليهود وأكاذيبهم: مارتن لوثر، مكتبة النافذة، القاهرة.

المحتويات

نافذة على الغرب 4

محمد المثل الأعلى

صدر من سلسلة نافذة على الغرب

I.S.B.N. 977-436-129-6

9789774361296

مكتبة النافذة